أَمَانِيُّ الْكَافِرِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ
فِي
ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

(دِرَاسَةٌ مَّوْضُوعِيَّةٌ)

إِعْدادُ:

د. عماد علي عبد السَّميع حسين

الأستاذ المشارك بكلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة في جامعة طيبة

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الناس فمنهم كافر ومنهم مؤمن، وأرشدهم إلى الهُدى، وحذرهم من الضلالة، ثم ترك لهم الاختيار فمن شاء فليكفر ومن شاء فليؤمن.

والصلاة والسلام على منادِي الإيمان، وماحي الكفر، محمدٍ عبد الله ورسوله، الذي طالما تمنى أن لو آمن الناس جميعاً، حتى قال له ربه تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس :٩٩]. وبعد:

فإن القرآن يهدى للتي هي أقوم، وقد ثبت لكل مؤمن أنه كلام الله، المعجز بدلالاته ونظمه وعلومه، وأنه محفوظٌ من التبديل والتغيير، ومحروسٌ من الزيادة والنقصان، ومن ثَّم وجب على كل مؤمن تصديق وعده ووعيده، والخوف من تحذيره وتهديده، والعمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه .

كم من إنسانٍ أعرض عن هديه فكفر، وآخر استجاب لندائه فخالطت بشاشةُ الإيمان قلبه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وهذا الكتاب الكريم لم ينظر إليه أحدٌ من سلفِ الأمة – يوماً – على أنه كتاب عقيدةٍ فحسب ! بل نظر إليه الجميع على أنه منهجٌ متكاملٌ للحياة، ينظم علاقات المؤمنين فيما بينهم، وعلاقاتهم مع الآخرين من غيرهم، وعلاقاتهم مع خالقهم سبحانه وتعالى، تنظيماً دقيقاً واضحاً شاملاً، فالقرآن هو خطة الإسلام الواضحة في التربية والتعليم، والاقتصاد، وفي الإفادة من المعارف الكونية، وفي العلاقات الاجتماعية، وفي تأمين المجتمعات الإسلامية

من الانحراف، وفي الكشف عن مؤامرات خصوم هذا الدين وأباطيلهم وما يتمنونه للمؤمنين.

مشكلة البحث:

ليس من المعقول ولا المقبول أن يفرق المؤمن في إيمانه بهذا الكتاب بين أخباره في المصداقية، وأحكامه في الإلزامية. فكل أخباره في الصدق سواء، وكل أحكامه في الإلزام سواء.

فالمؤمن الذي يؤمن بما جاء في القرآن من أوامر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج .. وغيرها من التكاليف ، يجب عليه أن يكون على نفس درجة الإيمان عندما يطالع ما جاء في القرآن – أيضاً– من التحذير من خصوم هذا الدين وكيدهم المستمر لمحقه ومحوه وإيقاف مسيرته أو تعطيلها.

وأمر الناس عجب !! فقد ثارت ثائرة العالم كله عندما كُشِفت بروتوكولات حكماء صهيون، التي تشتمل على خطة سِرِّية لليهود في تدمير العالم وإفساده، وأعطى الناس جميعاً هذا الأمر اهتماماً كبيراً، وهذا شيء يدل على الوعي والشعور بالخطر، ولكن رجع الناس بعد ذلك يُنفِّذون مخططات اليهود في إفساد الأرض وتدمير الأديان . . دون أن يشعروا .

والأمر هنا يختلف تماماً عما كشفه القدر من دسائس تواصى عليها زعماء اليهود في بروتوكولاتهم، فقد حاول اليهود التبرؤ من تلك البروتوكولات وإنكار نسبتها إليهم، حتى يتجنبوا ردة الفعل التي أحدثها كشف تلك المخططات، ووجدوا من يصدقهم في هذا، ومن يقول بأنها نظرة المغالين منهم ولا تُعبِّر عن كل اليهود.. وغير ذلك، وشيئاً فشيئاً نسى العالم تلك المخططات، إلى أن تمكَّن

اليهود من تحقيق كثيرٍ مما خططوا له.

أمَّا هنا في ضوء القرآن: فلا مجال للتغافل، ولا سبيل للإنكار أو التخادع، لأن ما كشفه القرآن من مخططات الكافرين– عمومًا– وأمانيهم، لا يقبل المساومة أو المزايدة أو الإنكار، ومن وقع من المؤمنين في شيء من هذا أضرَّ بدينه، وربما خرج منه، لأن فِعله هذا يتضمن التكذيبَ لأخبار القرآن.

الدراسات السابقة:

وقد أطلق كثير من أهل اليقظة من علمائنا – رحمهم الله – صيحات التحذير للمؤمنين، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾ [سورة النساء: ٧١]

ومن هؤلاء: الأستاذ جلال العالِم، في كتابه: (قادة الغرب يقولون دمِّروا الإسلام أبيدوا أهله).

والأستاذان: عمر فرُّوخ، ومصطفى الخالدي، في كتابهما: (التبشير والاستعمار في البلاد العربية)، والشيخ: محمد الغزالي، في كثير من كتبه وأخَصُّها كتاب: (صيحة نذير من التنصير)، والمستشار: عزت الطهطاوي، في كتابه: (التبشير والاستشراق حملات وأحقاد على النبي محمد – ﷺ – وبلاد الإسلام)، واللواء: أحمد عبد الوهاب، في كتابه: (التبشير بين الماضي والحاضر)، والمستشار :علي جريشة، في كتابه: (أساليب الغزو الفكري)، والأستاذ: محب الدين الخطيب، في ترجمته لكتاب: (الغارة على العالم الإسلامي) لمؤلفه شاتليه، والأستاذ: أنور الجندي في كثير من مؤلفاته، والشيخ: حبنكة الميداني، في كتابه: (أجنحة المكر الثلاثة)وغير ذلك، والجديد في هذا

البحث هو دراسة الموضوع في ضوء القرآن الكريم بتتبع الآيات الواردة في كشف ما يتمناه الكافرون للمؤمنين.

وآمُل أن يكون هذا البحث المتواضع حلقةً في صيحات التحذير، وأن يفتح الله به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأن يجعله جزءاً من واجب النصيحة الذي أوجبه الله علينا ،وجعله عنواناً للدين في قوله – ﷺ – : (الدين النصيحة ..) [1].

جدير بالذكر أن أُنبِّه على أن التحذير من أماني الكافرين للمؤمنين لا يُنسينا أنهم متفاوتون في بُغضهم للمؤمنين وليسوا سواءً، وهذا ما قرره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [سورة المائدة :٨٢].

وهذا يقتضي منا أن نعامِل كل واحد منهم بما يُظهر لنا مِن معاملة، وأن نعاملهم بالقسط ما لم يقاتلونا أو يُظاهروا على قتالنا، وأن لا يَحمِلنا بُغضهم على ظلمهم أو الجور عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة المائدة :٨]

---

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند ٣٩٧/٣ برقم (٣٢٨١) ، ورواه الترمذي في سننه: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النصيحة، ص/٥٧٢ برقم (١٩٣٢) وقال: (حسن صحيح)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٦٤٢/١ برقم (٣٤١٧).

تمهيد

الأمانيّ في اللغة: جمع أُمنِيَّة، مشددة ومخففة، والتمنِّي: حديث النفس بما يكون وبما لا يكون[١]، قال ابن الأثير– رحمه الله: (التمني: تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون وما لا يكون)[٢].

وقد يأتي التمني بمعان أخرى، كالسؤال: يُقال تمنَّى على الله، أي سأله[٣]، وفى الحديث عند أحمد في مسنده، عن أبى هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال: (إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدرى ما يُكتب له من أمنيته)[٤].

وقد يأتي بمعنى القراءة والتلاوة، ومنه قوله تعالى عن أهل الكتاب قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[البقرة: ٧٨] أي قراء.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢] أي قرأ وتلا فألقى الشيطان في قراءته ما ليس منها .

---

(١) لسان العرب : محمد بن مكرم بن على . . ابن منظور ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٣/١٣ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر : مجد الدين المبارك ابن الأثير ، تحقيق : د. عبد الحميد هنداوي ، طبعة المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥، ٣٠٤/٤ .

(٣) لسان العرب ٢٠٤/١٣ .

(٤) رواه أحمد في المسند ٣٨٩/٨ برقم (٨٦٧٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : (إسناده صحيح) .

وقد يأتي التمني بمعنى الكذب، والعرب تقول: أنت إنما تتمنى هذا القول، أي تختلقه، وهو من باب قولهم للذي يقول مالا حقيقة له: هذه مُنىً وهذه أُمنيَّة، ويقول الرجل: والله ما تمنيت هذا الكلام ولا اختلقته[1]، ومنه قول الحسن البصري– رحمه الله: (ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدّقته الأعمال)[2]، أي ليس بالقول الذي تُظهره بلسانك فقط..[3] وفى حديث عثمان بن عفان – رضي الله عنه– قال: (ما تمنيتُ منذ أسلمتُ) أي ما كذبتُ، والتمني: التكذُّب، لأن الكاذب يُقدِّر الحديث في نفسه ثم يقوله[4].

وهذه المعاني كلها متقاربة، والجامع بينها هو الإرادة، وهى متوفرة في حديث النفس بما يكون ومالا يكون، وفى تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه، ومتوافرة أيضاً في السؤال وطلب الحوائج ، وفي القراءة، وفى الكذب كذلك.

وأليَق هذه المعاني بموضوع هذا البحث هو تشهِّى حصول الأمر المرغوب فيه، وتحديث النفس بما يكون ومالا يكون.

ومن الألفاظِ المقاربة لمادة (مَنَى) لفظة (وَدَّ)، وهى في أكثر الأحيان تَرِد

---

(١) لسان العرب ٢٠٤/١٣ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ٣٠٥/٤.

(٢) رواه البيهقي : في شعب الإيمان باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه . .، ٦٤/١ برقم (٦٦) والديلمي في مسند الفردوس ٥٢٧٣/٣) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير ، برقم (٤٨٨٠).

(٣) نهاية في غريب الحديث والأثر ٣٠٥/٤ ، ولسان العرب ٢٠٤/١٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢١٥/٤ ، ولسان العرب ٢٠٤/١٣.

بمعنى التمني، قال ابن منظور– رحمه الله: (الوُدّ: مصدر المودة، وهو الحب يكون في جميع مداخل الخير، تقول: وددتُ الشيء أودُّ، وهو من الأُمنية، ويقال: ودّ الشيء، وِداداً ومودة، أي: أحبَّه، وتقول: وددتُ لو تفعل كذا: أي تمنيتُ ...) [(١)].

وفى الغالب يأتي بعد (وَدَّ)(لَوْ) التي للتمني، في كثير من الآيات التي سترد معنا في هذا البحث، وعلى هذا يمكن – بتوفيق الله – صياغة مصطلحٍ لأمانيّ الكافرين للمسلمين على هذا النحو، فهي: تلك الأمور التي يُحدِّث الكافرون بها أنفسهم، ويتشهَّون حصولها للمؤمنين، وكلها شر.

أو بعبارة أخرى: هو ذلك الشر الذي يتمناه الكافرون، ويُحدِّثون به أنفسهم، ويشتهون حصوله للمؤمنين، بدافع الحقد والحسد، وبعبارة ثالثةٍ: هي فرح الكافرين بمُساءة المؤمنين ومَضرَّتهم.

(١) لسان العرب ١٥/٢٤٧ ، ٢٤٨، وانظر : كتاب العين : للخليل بن أحمد ، ص/ ١٠٤١ .

المبحث الأول

تمنِّي الكافرين انقطاع الخير عن المؤمنين

يقول الله – تعالى– في بيان تلك الأمنية من أماني الكافرين للمؤمنين:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[سورة البقرة: ١٠٥]

سبب نزول الآية:

قال الواحدي – رحمه الله[١]: (كان المسلمون إذا قالوا لحلفائهم آمِنُوا بمحمد، قالوا: ما هذا الذي تدعوننا إليه بخيرٍ من الذي نحن فيه، ولوددنا لو كان خيراً، فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيباً لهم)[٢].

وفى ضوء هذا السبب تكلم المفسرون في بيان معنى الآية ، فتناولها كل واحد ببيان يشفى العلة، ويروى الغلة.

قال ا بن جرير الطبري– رحمه الله[٣]: (يعنى بقوله: ما يود الذين كفروا

---

(١) الواحدي: هو أبو الحسن على بن أحمد النيسابوري، صاحب التفاسير الثلاثة، وقد رزق السعادة في تصانيفه ، فأجمع الناس على حسنها ، توفى سنة ٤٦٨هـ . انظر: البداية والنهاية : لابن كثير ١٢/١٢٥.

(٢) أسباب النزول: على بن أحمد الواحدي ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م ، ص /١٩ ، وانظر العجب العجاب في بيان الأسباب : أحمد بن على بن حجر العسقلاني ، تحقيق عبدالحكيم الأنيس ، طبعة دار ابن الجوزي ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ، ١/٣٤٧.

(٣) محمد بن جرير الطبري : شيخ المفسرين المتوفى ٣١٠هـ . انظر : البداية والنهاية ١١/١٥٨.

من أهل الكتاب ولا المشركين: أي ما يحب، .. ومعنى الكلام: أي ما يحب الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان أن ينزل عليكم من الخير الذي كان من عند الله فنزله عليكم، فتمنى المشركون وكَفَرة أهل الكتاب أن لا ينزل الله عليهم الفرقان وما أوحاه إلى محمد – ﷺ – من حكمه وآياته، وإنما أحب اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسداً وبغياً منهم على المؤمنين، وفي هذه الآية دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع لقولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم باطلاعه – جل ثناؤه – إياهم على ما يستنبطه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما يستبطنون)[١]. والمراد بأهل الكتاب: يهود المدينة ونصارى نجران، وبالمشركين أهل مكة، قاله ابن عباس – رضي الله عنهما[٢].

والصّحيح أنه عام في كل اليهود والنصارى والمشركين في كل زمان ومكان.

(وفي التعبير بقوله تعالى: ما يود الذين كفرو امن أهل الكتاب تنبيه إلى أنهم قد كفروا بكتبهم؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا محمداً – ﷺ – الذّي أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه، وعطف عليهم المشركين ليدل على أن

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري، تحقيق: صدقي العطار، طبعة دار الفكر، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م ، ١/٦٠٦ ، ٦٠٧ .

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ، ص/٨٠ .

عبدة الأصنام – أيضاً – يضاهون كفرة أهل الكتاب في كراهة نزول الخير على المؤمنين، أن الجميع يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله عن طريق نبيه محمد – ﷺ – من دين قويم، وقرآن كريم، وهداية عظيمة، وأخوة شاملة، وأمن بعد خوف، وقوة بعد ضعف)[١].

وقال الآلوسي: (.. وأتى بما يود: للإشارة إلى أن أولئك متلبسون بها – أي بالكراهة – ومِن للتبيين، وقيل: للتبعيض، وفى إيقاع الكفر صلة للموصول وبيانه بما بيَّن، وإقامته المُظهَر موضع المُضمَر إشعار بأن كتابهم يدعوهم إلى متابعة الحق، إلا أن كفرهم يمنعهم، وأن الكفر شر كله؛ لأنه يورث الحسد، ويحمل صاحبه على أن يبغض الخير ولا يحبه، كما أن الإيمان خير كله؛ لأنه يحث صاحبه على تفويض الأمور كلها لله تعالى[٢].

والمراد بالخير الذي يتمنى الكفرة انقطاعه عن المؤمنين وعدم نزوله عليهم: قيل: النبوة والإسلام، وقيل: أراد بالخير العلم والفقه والحكمة، وقيل: المراد بالخير القرآن والوحي، وقيل: النعمة والفضل، والمراد به في الآية الكريمة: النبوة وما يتبعها من الوحي الصادق.. لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم، والقرآن أعظم الخيرات؛ لأنه النظام الكامل، والفضل الشّامل والهداية

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم : د. محمد سيد طنطاوي ، طبعة دار نهضة مصر ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م ، ١/ ٢٣٩.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : محمود شكري الآلوسي ، تحقيق محمد حسين، طبعة دار الفكر، بيروت، ١/٥٥٠،٥٥١.

العظمى، والآية الكبرى ..)[1]**. والصّواب أن الخير الذي يتمنى الكافرون أن لا ينزل على المؤمنين هو اسم جامع يعم كل خير ، قليله وكثيره ، ظاهره وباطنه .**

قال العلامة صديق حسن خان: (.. وقد قيل: بأن الخير الوحي، وقيل: غير ذلك، والظاهر أنهم لا يودون أن ينزل على المسلمين أي خير كان، فهو لا يختص بنوع معين، كما يفيده وقوع هذه النكرة في سياق النفي، وتأكيد العموم بدخول (من) المزيدة عليها، وإن كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص . .) [2]**.**

سبب تمنيهم هذه الأمنيّة: (أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يُوحَى إليهم فيحسدونكم ، وما يحبون أن ينزل عليكم من شيء من الوحي)[3]**.**

(أما أهل الكتاب ولاسيما اليهود فلحسدهم للعرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوة ، وهو ما كانوا يحتكرونه لأنفسهم ، وأما المشركون فلأن في التنزيل المرة بعد المرة من قوة الإسلام ورسوخه ما خيَّب آمالهم في تربصهم

---

(١) انظر زاد المسير في علم التفسير ، ص/٨٠ ، والجامع لأحكام القرآن الكريم : لأبي عبد الله محمد ابن أحمد القرطبي ، تحقيق : صدقي العطار ، وعرفات العشا ، طبعة دار الفكر، بيروت: ١٤٢٢هـ، ٤٨/٢ .والتفسير الوسيط : طنطاوي ٢٣٩/١. وتفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار): محمد رشيد رضا ، طبعة دار الفكر بيروت ، الطبعة الثانية، بدون تاريخ، ٤١٢/١.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن : صديق حسن خان ، طبعة دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨/١ .

(٣) مفاتيح الغيب : فخر الدين محمد بن عمر الرازي ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٣هـ ، ٢٤٥/١.

الدوائر بالنبي – ﷺ – وانتهاء أمره)[١].

وقد ردّ الله على الكافرين رداً فيه طمأنة للمؤمنين على أن هذه الأمنية التي يتمناها لهم الكافرون والتي مبعثها الحسد والحقد لا تؤثر فيما ينزل عليهم من خير، فقال تعالى: (والله يختص برحمته من يشاء)، (أي يختص برحمته من علم أنه حقيق بها ، ولا سيما الرحمة المراد منها النبوة، فإن الله يختص بها من خَلقَه قابلاً لها ، فهو يخلقه على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة لتلقى الوحي .. قال تعالى: (وَلَمَّا بَلغَ أشدَّه آتيناهُ حُكماً وَعِلْماً) وقال: (اللهُ أَعلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[٢].

وهذا الجواب القرآني على الكافرين يشبهه المثل الذي ضربه النبي – ﷺ – في السنة لهذه الأمة والأمم السابقة فعند الإمام أحمد عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ: (مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً، فقال: مَن يعمل مِن صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط ؟ ألا فعملت اليهود، ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط ؟ ألا فعملت النصارى ، ثم قال: مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم ، فغضب اليهود والنصارى ، فقالوا نحن كنا أكثر عملاً وأقل عطاءً !! قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء)[٣].

---

(١) تفسير المنار ، ٤١٢/١ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير : محمد الطاهر ا بن عاشور ، طبعة دار سحنون ، تونس ٦٥٤/١ .

(٣) صحيح : رواه أحمد في المسند ٢٨٨/٤ برقم (٤٥٠٨) من حديث ابن عمر ، وقال الشيخ =

وفي تذييل الآية بقوله تعالى: (والله ذو الفضل العظيم) ما يستجيش في قلوب الذين آمنوا الشعور بضخامة العطاء وجزالة الفضل ، وأن كل عطاء ناله عباده في دينهم ودنياهم فإنه من الله ابتداءً وتفضلاً عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك، وفى التقرير الذي سبقه عما يضمره الذين كفروا للذين آمنوا ما يستجيش الشعور بالحذر والحرص الشديد، وهذان الشعوران ضروريان للوقوف في وجه حملة البلبلة التي قادها– ويقودها – اليهود ، لتوهين العقيدة في نفوس المؤمنين وهي الخير الضخم الذي ينفسونه على المسلمين[1] .

(وفي الآية تنبيهان: أحدهما أن من كان يحسد أهل الخصوصية – أي المختصين بالرحمة – وينكر عليهم، فيه نزعة يهودية، وخصلة من خصال المشركين، والثاني أن حسد أهل الخصوصية والإنكار عليهم أمر شائع وسنة ماضية، فليوطن المريد نفسه على ذلك، ويعلم أنه ما يقال له إلا ما قد قيل لمن قبله.. وما من نعمة إلا وعليها حسود)[2].

= شاكر : (إسناده صحيح)، ورواه الترمذي في سننه : كتاب الأمثال ، باب ما جاء في مثل آدم وأجله وأمله ، ص /٨١٥ ، برقم (٢٨٨٠) وقال : (حسن صحيح) ، ورواه البخاري مطولاً .

(١) انظر: في ظلال القرآن : سيد قطب ، طبعة دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الرابعة والثلاثون ، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤م ، ١٠١/١ ، وانظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، طبعة دار ابن حزم ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م . ص/ ٤٧ .

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد : لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة ، تحقيق أحمد عبد الله القرشي ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨م ، ١٤٨/١ .

نظائر هذه الآية:

لقد جاء في القرآن الكريم نظائر لهذه الآية تدل على أن أهل الكفر لا يتمنون أن ينزل بالمسلمين خير أبداً، وإن نزل بهم خير استاءوا لذلك واغتاظوا، وأنهم يفرحون بنزول المصائب لا الخير بالمسلمين، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]

قال الشوكاني – رحمه الله: (هذه الجملة مستأنفة لبيان تناهى عداوتهم، وحسنة وسيئة يعُمَّان كل ما يحسن وما يسوء، وعبر بالمـّس في الحسنة وبالإصابة في السيئة للدلالة على أن مجرد مس الحسنة يحصل به المساءة، ولا يفرحون إلا بإصابة السيئة، وقيل المس بمعنى الإصابة، ومعنى الآية أن كل من كانت هذه حالته لم يكن أهلاً لأن يتخذ بطانة)[1].

وفي نفس السياق قال أبو حيان الأندلسي – رحمه الله: (الحسنة هنا ما يسر من رخاء وخصب ونصر وغنيمة، ونحو ذلك من المنافع ، والسيئة ضد ذلك، بيّن تعالى بذلك فرط عداوتهم، حيث يسوءُهم ما نال المؤمنين من الخير، ويفرحون بما يصيبهم من الشدة، قال الزمخشري: المس مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحداً .. وقال ابن عطية: ذكر الله تعالى المس في الحسنة ليبين أن بأدنى طروءٍ للحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل في السيئة بلفظ الإصابة، وهى عبارة عن التمكن؛ لأنّ الشيء المصيب لشيء هو

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير : محمد بن على الشوكاني ، طبعة مؤسسة الريان ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ، ٤٨٩/١ .

متمكن منه أو فيه، فدل هذا النوع البليغ على شدة العداوة، إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدائد، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين ... قال قتادة والربيع وابن جريج: الحسنة بظهوركم على العدو، والغنيمة منهم، والتتابع بالدخول في دينكم ، وخصب معاشكم ، والسيئة بإخفاق سرية منكم، أو إصابة عدو منكم، أو اختلاف بينكم ، وقال الحسن : الحسنة الألفة واجتماع الكلمة، والسيئة إصابة العدو، واختلاف الكلمة، وقال ابن قتيبة: الحسنة النعمة، والسيئة المصيبة: وهذه الأقوال هي على سبيل التمثيل، وليست على سبيل التعيين)(١).

قلت: ويُستخلص من أقوال المفسرين أن الكافرين الذين لا يودون أن ينزل على المؤمنين من خير، لا يودون لمريض المسلمين أن يشفى، ولا لفقيرهم أن يَغنى، ولا لجيشهم أن ينتصر أو يَغنم، ولا لقلوبهم أن تتآلف، ولا لكلمتهم أن تجتمع، ولا لنعمتهم أن تدوم، ولا لشدتهم أن تزول، ولا لأرضهم أن تخصب، ولا لدينهم أن ينتشر !!

وكما طمأن الله المؤمنين في سورة البقرة بقوله: (..وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يشَاءُ واللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) طمأنهم – هنا – في نظير آية البقرة بقوله: (وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُم كَيْدُهُمْ شَيْئاً) ، (أي إن تصبروا على الإيمان وتتقوا الشرك، ولا تسأموا أذاهم وإن تكرر، وتصبروا على حربهم .. وفى هذا

(١) البحر المحيط في التفسير : محمد بن يوسف (الشهير بأبي حيان الأندلسي) ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ٣٢٢/٣ ، وانظر فتح البيان في مقاصد القرآن ١٢٣/٢. ومفاتيح الغيب ٢٢٢/٨.

تبشير للمؤمنين وتثبيت لنفوسهم، وإرشاد إلى الاستعانة على كيد العدو بالصبر والتقوى)[1].

ولما كان رسول الله – ﷺ – هو سبب كل خير ينزل بالمؤمنين، كان بُغض أهل الكفر له أشد من بُغضهم لأي فرد من أمته ، وقد جاء القرآن يصور مدى استياء الكافرين من نزول الخير به – صلى الله عليه وسلم – وفرحهم بالمصيبة تنزل عليه، قال تعالى :﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠] ، أي: (إن تصبك حسنة من نصرٍ أو غنيمةٍ، يستاؤن بها، وإن تصبك مصيبة من قتل أو هزيمة يفرحون بمصابك وسلامتهم)[2].

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٣٢٣/٣ – بتصرف ، وانظر: مفاتيح الغيب : للرازي ٢٢٢/٨ ، وفتح البيان في مقاصد القرآن ١٢٤/٢.

(٢) زاد المسير في علم التفسير ، ص/٥٨٧ – بتصرف يسير .

المبحث الثاني

تمنِّي الكافرين العنت والمشقة للمؤمنين

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[سورة آل عمران: ١١٨ –١٢٠]

سبب نزول الآيات:

روى ابن جرير عن ابن عباس– رضي الله عنهما– قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لِمَا كان بينهم من الجوار والحِلف في الجاهلية، فأنزل الله – عز وجل – فيهم فنهاهم عن مباطنتهم تخوّف الفتنة عليهم منهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا) [(١)].

وها هو القرآن الكريم يكشف عن أمنية أخرى من أماني الكافرين للمؤمنين، وهي أنهم يتمنون للمؤمنين العنت والمشقة والضرر و الهلاك، وكانت المناسبة التي دعت إلى هذا البيان، هي تحذير المؤمنين من مخادعة الكافرين الذين قد يُظهِرون لهم في بعض الوقت الوُدَّ خداعاً لهم من أجل أن يفتنوهم.

قال الإمام الطبري – رحمه الله: (في هذه الآية ينادي الحق – جل

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤/٧٥ .

ذكره– عباده المؤمنين بألا يتخذوا لهم بطانة من غيرهم ،أي من الكافرين؛ لأن هؤلاء الكافرين ..لا يألونكم خبالا، ..أي: إن هذه البطانة لا تدع جهدها فيما أورثكم الخبال، وأصل الخبال: الفساد .. ثم قال :(ودوا ما عنتم ..) أي: ودوا عنتكم، فهم يتمنون لكم العنت والشر في دينكم، وما يسؤكم ولا يسركم، (قد بدت البغضاء من أفواههم) أي من ألسنتهم، والذي بدا لهم منهم بألسنتهم إقامتهم على كفرهم وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمون في الضلالة، فذلك من أوكد الأسباب في معاداتهم أهل الإيمان، لأن ذلك عداوة على الدين، والعداوة على الدين لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى ملة الآخر منهما (وما تخفي صدورهم أكبر) أي والذي تخفيه صدور هؤلاء الذين نهاكم الله عن اتخاذهم بطانة فتخفيه عنكم أيها المؤمنون– أكبر مما قد بدا لكم من ألسنتهم (قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) أي قد بينا لكم أيها المؤمنون العِبر، إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه، وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم، ومبلغ عائدته عليكم)(١).

وقال أبو حيان الأندلسي: (.. ولما ذكر تعالى ما انطووا عليه من ودادهم عنت المؤمنين، وهو إخبار عن فعلٍ قلبي ، ذكر ما أنتجه ذلك الفِعل القَلبي من الفعل البدني ، وهو : ظهور البُغض منهم للمؤمنين في أقوالهم، فجمعوا بين كراهية القلوب وبذاءة الألسن، ثم ذكر أن ما أبطنوه من الشر والإيذاء للمؤمنين والبُغض لهم أعظم مما أظهر منهم فقال: وما تُخفي صدورهم

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤/٧٣– ٧٨ باختصار ، وانظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص/ ١٢٨.بتصرف.

أكبر..، أي أكثر مما ظهر منها، .. قد بينا لكم الآيات: أي الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة المؤمنين، ومعاداة الكافرين، إن كنتم تعقلون: أي ما بُيِّن لكم، فعملتم به، أو إن كنتم عقلاء، وقد علم تعالى أنكم عقلاء، لكن علّقه على هذا الشرط على سبيل هزِّ النفوس، كقولك : إن كنت رجلاً فافعل كذا ... وقيل إن كنتم تعقلون فلا تُصَافوهم بل عامِلوهم معاملة الأعداء ..)[1]

ومما سبق يتضح أن العلة في نهي المؤمنين عن اتخاذ الكافرين بطانة لهم، يقربونهم منهم، هي بُغض الكافرين للمؤمنين وتمنيهم العنت والمشقة لهم، وعدم ادخار الجهد في إدخال الضرر والفساد و الهلاك عليهم، ثم بيَّن تعالى أن إظهار هذه الأسرار للمؤمنين من نعمه عليهم ، فقال: قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون .. أي من أهل العقل والفهم والدراية، وقيل: إن كنتم تعقلون الفصل بين ما يستحقه العدو والولي ، والمقصود بعثهم على استعمال العقل في تأمل هذه الآية وتدبر هذه البينات)[2].

سعيُ الكافرين إلى تحقيق هذه الأمنية:

لا شك أن هذه الأماني التي تنطوي عليها قلوبهم لا تقف عند حدود القلب فقط، بل تخرج في كثير من الأحيان إلى حيِّز الواقع في صورة أقوال، كما قال تعالى: (قد بدت البغضاء من أفواههم) بتكذيبهم النبي – ﷺ – وسبِّه وشتْمِه، وكذلك سبهم وشتمهم لأصحابه ونسبتهم إلى الجهل والحمق، ونحو ذلك ..

---

(١) البحر المحيط في التفسير ٣١٧/٣ ، ٣١٨ .

(٢) مفاتيح الغيب : للرازي ٢١٨/٨ ، ٢١٩ .

وقد تخرج هذه الأماني إلى حيِّز الواقع في صورة أفعال، يُقصد منها إدخال الضرر والمشقة والفساد والهلاك على المؤمنين، وأكثر ما يُدخل هذه الأمور على المسلمين هو فساد ذات بينهم وشبيب نار الفتنة بينهم ولذا كان أكثر ما يغيظ الكافرين – وخصوصاً اليهود – هو ما يرون من اجتماع كلمة المؤمنين، وتآلف قلوبهم ، وقد سعوا كثيراً في إدخال العنت عليهم من هذا الباب.

وقد روى الواحدي قصةَ شاس بن قيس اليهودي، مطولة، ومفادها أنه تغيظ من اجتماع كلمة الأوس والخزرج بهذا الدين، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، فأراد أن يشعل نار الفتنة بينهم ليدخل العنت عليهم، فأمر شاباً من اليهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذَكِّرهُم بعاثاً وما كان فيها، وأَنْشِد بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين، فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه: إن شئت رددتها جذعة، وغضب الفريقان جميعاً وقالا: ارجعا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة، وهى حَرَّة، فخرجوا إليها، وكاد الفريقان أن يقتتلا بدعوى الجاهلية، فبلغ ذلك رسول – ﷺ – فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال: (يا معشر المسلمين أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألّف بينكم، فترجعون إلى ما كنت عليه كفاراً، الله الله) فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا وعانق بعضهم

بعضاً، فأنزل الله عز وجل(١): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠] .

ولا زال الكافرون يسعون بسعاية أسلافهم لإدخال العنت والمشقة والفساد والضرر على المسلمين، ويستخدمون في ذلك كل وسيلة، ويسلكون إليه كل طريق ،فيشنون الغارات والحملات العسكرية التي تدمر بلاد المسلمين، وتدعها خراباً، ويضربون اقتصاد المسلمين حتى يبقى الفقر والجوع والحرمان والتخلف في ديارهم يصطلون بناره، وربما يَظهرون في بعض الأحيان في مظهر المُحسن المتصدق، لإذلال المسلمين أو إظهار عجزهم، ويُشعلون نار الفتنة بين المسلمين عن طريق ما يسمى بالعمل الدبلوماسي، وإحياء العصبيات والقوميات والنعرات التي قضى عليها الإسلام، وكل ذلك لتفريق المسلمين، ويُصدِّرون إلى المسلمين أفكاراً تعادى الدين وترفض وجوده في الحياة وتعتبره سبباً من أسباب التخلف والرجعية، ليوجِدوا أعداءً للأمة من داخلها، فيكفونهم المؤنة، ويبقى دَورهم في الإشراف والتوجيه !!

وفى ظل هذه السِّعاية الخبيثة من الكافرين لإدخال العنت والخبال على المسلمين ، تظهر تلك الآثار التي تدل على عملهم الدؤوب لتحقيق هذه الأمنية في المؤمنين ، ومن تلك الآثار(٢):

---

(١) انظر: الواحدي في أسباب النزول، ص / ٦٤ ، ٦٥، وابن حجر في العجاب في بيان الأسباب ٧٢١/٢، ٧٢٢، وابن أبي حاتم في تفسيره ، ٧١٩/٣ .

(٢) انظر: عصر الإلحاد خلفيته التاريخية وبداية نهايته : محمد تقي الأميني ، ترجمة : د مقتدى حسن ياسين، طبعة دار الصحوة ، القاهرة ١٤٠٤ هـ /١٩٨٤م ، ص/١٦– ٢٦ .

١- تنعدم روح الاتباع الحقيقي لهذا الدين، بل ربما يصبح التظاهر بالتدين وسيلة للحصول على الدنيا.

٢- تُبتلى الأمة بالصراع الطبقي، ويسيطر اتجاه الترف والبذخ على جميع الناس، فتُستخدَم الأغراض والمصالح العامة ستاراً للمصالح الشخصية، ويصيرُ الخَوَر والكسل والتطفل طبعاً في الناس، وتنتشر الرِّشوة والنفاق، وتضيع الحقوق.

٣- حصل الإقبال على الرغبات الدنيئة والإعراض عن الجهاد وحب النصر، وانعدمت عاطفة الخدمة الوطنية والجماعية، وذابت روح القوة العسكرية ، وحلَّت آلات الترف محل آلات الحرب.

٤- تعم حالة من اليأس والقنوط فيقتنع الجميع بالسلام المُذِل، وتبرد عواطف الرقِيِّ والعزيمة والطموح ليحل محلها السعي وراء المصالح التافهة.

... وغير ذلك من الآثار التي تُشقِي المجتمع وتُفسده وتُهلكه، فهل سيعقل المسلمون كما قال لهم ربهم: (قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) ؟

المبحث الثالث

تمنّي الكافرين إضلال المؤمنين

قال تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٦٩ –٧٣]

والمعنى: تمنت طائفة من أهل الكتاب، قيل: هم يهود بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع حين دعوا جماعة من المسلمين إلى دينهم، وقيل: جميع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فتكون مِن لبيان الجنس، لو يضلونكم أيها المؤمنون لترجعوا عن دينكم، ويردونكم إلى ما هم عليه من الكفر، فيهلكونكم بذلك(١).

قال الفخر الرازي: (اعلم أنه تعالى لما بيَّن أن من طريقة أهل الكتاب العدول عن الحق، والإعراض عن قبول الحجة بيَّن أنهم لا يقتصرون على هذا القدر، بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول – ﷺ – بإلقاء الشبهات كقولهم: إن محمداً – عليه السلام – مقر بموسى وعيسى، ويدعى لنفسه

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣٧٨/٣، وفتح القدير: للشوكاني ٤٥٦/١، ومحاسن التأويل: للقاسمي ٣٨٠/٢ .

النبوة، وأيضاً إنّ موسى – عليه السلام – أخبر في التوراة بأن شرعه لا يزول، وأيضاً القول بأن النسخ يُفضِي إلى البداء، والغرض منه تنبيه المؤمنين على أن لا يغتروا بكلام اليهود .. وقال تعالى :لو يضلونكم ، ولم يقل: أن يضلونكم، لأن (لو) للتمني، فإن قولك: لو كان كذا يفيد التمني)[1].

(ولا شك أنهم كانوا أشد الناس حرصاً على إضلال المؤمنين، سواء دعوا بعض الصحابة إلى دينهم أم لا، وليس الإضلال خاصاً بالدعوة، بل كانوا يلقون ضروباً من الشك في النفوس ليصدوها عن الإسلام .. وكان النزاع بين الفريقين مستمراً وهو ما لا بد منه في وقت الدعوة)[2].

وما يفعله أهل الكتاب من محاولات لإضلال المؤمنين عن دينهم هو بالنسبة لهم ضلال، لأنه صدٌّ عن الحق وانشغال عنه، ولذلك قال تعالى: وما يضلون إلا أنفسهم، والمعنى: (أنهم بتوجههم إلى الإضلال واشتغالهم به ينصرفون عن النظر في طرق الهداية ، وما أوتيه النبي – ﷺ – من البينات على كونه نبيًّا هادياً، فهم يعبثون بعقولهم ويفسدون فطرتهم باختيارهم، أو لأنهم اجتهدوا في إضلال المؤمنين، ولما لم يلتفت المؤمنون إليهم صاروا خائبين خاسرين، حيث اعتقدوا شيئاً ولاح لهم أن الأمر بخلاف ما تصوروه)[3].

قال الشوكاني: (وقوله: (وما يضلون إلا أنفسهم) جملة حاليَّة للدلالة على ثبوت قدم المؤمنين في الإيمان، فلا يعود وبالُ من أرادهم بالفتنة إلا عليه ..)[4].

---

(١) مفاتيح الغيب: للرازي ١٠١/٨ .

(٢) تفسير المنار: محمد رشيد رضا ٣٣١/٣.

(٣) المصدر السابق ٣٣١/٣، وانظر: مفاتيح الغيب ١٠١/٨.

(٤) فتح القدير: للشوكاني ٤٥٦/١ .

عتابُ الله للكفار من أهل الكتاب بشأن تمنيهم إضلال المؤمنين:

ثم إنّ الله تعالى عاتب أهل الكتاب على صنيعهم هذا، إذ كيف يتمنون إضلال المؤمنين ويسعون في ذلك، وهم أهل علمٍ ومعرفةٍ بأن ما يحاولون إضلالهم عنه هو الحق الذي قامت عليه البينات والحجج ، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٠ – ٧١]

ويلاحظ أن الله – تعالى – يناديهم بهذا النداء لاستمالتهم (يا أهل الكتاب)، لعلهم يلتفتون إلى أنفسهم التي شغلوا عنها بمحاولة إضلال غيرهم[١].

(ولقد كان أهل الكتاب وقتها – وما يزالون حتى اليوم – يشهدون الحق واضحاً في هذا الدين، سواء منهم المطلعون على ما جاء في حقيقة كتبهم عنه من بشارات وإشارات.. وغير المطلعين، ولكنهم يجدون في الإسلام من الحق الواضح ما يدعو إلى الإيمان، غير أنهم يكفرون، لا لنقص في الدليل، ولكن للهوى والمصلحة والتضليل..)[٢].

والمراد بالآيات التي عوتب أهل الكتاب على كفرهم بها هنا: قيل: التوراة والإنجيل، وقيل: القرآن، وقيل: ما في كتبهم من دلائل نبوته – صلى الله عليه وسلم – وقيل: المعجزات التي أظهرها الله على يديه – ﷺ – من انشقاق القمر وحنين الجذع، وتسبيح الحصى، وغير ذلك، ولا تنافى بينها جميعاً، فقد كفر بها أهل الكتاب وأنكروها وهم يشهدون، فقد كانوا إذا خلا بعضهم ببعض

---

(١) تفسير المنار: رشيد رضا ٣٣٢/٣ .

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب ٤١٤/١.

شهدوا بصحتها[1].

وليتهم اكتفوا بكفرهم وحدهم، بل تعدى ذلك إلى أن جعلوا يلبسون الحق بالباطل للتلبيس تارة، ويكتمونه ويخفونه تارة أخرى، ولذلك كرر الله تعالى النداء لهم في سياق الاستفهام الإنكاري فقال: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)، والمراد باللبس: الخلط والتغطية[2].

وقيل: يتأولون الآيات التي فيها الدلالة على نبوة محمد – ﷺ – على خلاف تأويلها، ليظهر منها للعوام خلاف ما هي عليه)[3].

والحق الذي ذُمُّوا على كتمانه: أكثر أهل التفسير على أنه نعتُ النبي – ﷺ – وصفته التي يجدونها في كتبهم، والبشارات التي يقرأونها بشأنه، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر[4].

وجملة (وأنتم تعلمون) جملة حالية تنعى عليهم ما التبسوا به من لبس الحق بالباطل وكتمانه، أي: لا يناسب من علم الحق أن يكتمه، ولا أن يخلطه بالباطل، وهو يشبه ختام الآية التي قبلها(أنتم تشهدون)، وفيها بيان قيام الحجة عليهم بالعلم والشهادة!!

---

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/٣٧٩، والبحر المحيط في التفسير ٣/٢٠٦، ومفاتيح الغيب ٨/١٠٢، وفتح القدير: للشوكاني ١/٤٥٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/١٩٠ .

(٣) البحر المحيط في التفسير ٣/٢٠٧.

(٤) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣/٣٨١.

والمقصود من توجيه هذا العتاب لأهل الكتاب لفت أنظارهم إلى ما هم عليه من الخطأ فيما يتمنونه للمؤمنين من الضلال والانحراف.

نماذج من أساليب الكافرين في التلبيس والإضلال:

وفي نفس السياق الذي كشف الله تعالى فيه للمؤمنين تمني الكافرين من أهل الكتاب إضلالهم، يكشف لهم عن أسلوب ماكرٍ من أساليبهم في التضليل والتشكيك، فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٣]

(فهذه الآية حكاية لنوع .. من تلبيساتهم، وهي مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من المؤمنين أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يُظهروا الإيمان أول النهار، ويُصلوا مع المسلمين، فإذا جاء آخر النهار: ارتدوا إلى دينهم، فيظن الضعفاء أنه لا غرض لهم إلا الحق، وأنه ما ردهم عن الدين بعد اتباعهم له وترك العناد، وهم أولوا علم وأهل كتاب، إلا ظهور بطلانه لهم، ولهذا قال: (لعلهم يرجعون) أي عن الإسلام كما رجعتم)[1].

روى ابن جرير الطبري عن السُّدِّي قال في هذه الآية: (كان أحبار قرًى عربيةً اثنى عشر حبراً، فقالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمداً حق صادق، فإذا كان آخر النهار فاكفروا، وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم فحدَّثونا أن محمداً كاذب، وأنتم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم ، لعلهم يشكُّون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم؟ فأخبر الله عز وجل رسوله – ﷺ – بذلك) ويروى مثله عن الحسن وقتادة ومجاهد وابن عباس[2].

(١) محاسن التأويل: للقاسمي ٣٨١/٢ .

(٢) جامع البيان عن تأول آي القرآن ٣٨٢/٣، وانظر: البحر المحيط في التفسير ٣١٠/٣

قال الشيخ رشيد رضا: (وهذا النوع الذي تحكيه الآية من صدّ اليهود عن الإسلام، مبنيٌّ على قاعدة طبيعية في البشر، وهى أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه، وقد فَقِه هذا هرقلُ صاحبُ الروم، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شؤون النبي – ﷺ – عندما دعاه .. (هل يرجع عنه من دخل في دينه؟ فقال أبو سفيان : لا ..)[1]، وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية، ليقولوا لولا أن ظهر لهؤلاء بُطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على بواطنه وخوافيه، إذ لا يُعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب..)[2].

وأما الفخر الرازي فقد أبدع في وقوفه مع هذه الآية ، قال : (اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم يَلبسون الحق بالباطل، أردف ذلك بأن حكى عنهم نوعاً واحداً من تلبيساتهم وهو .. أنّ اليهود والنصارى استخرجوا حِيلة في تشكيك ضَعَفة المسلمين في صحة الإسلام، وهي أن يُظهِروا تصديق ما ينزل على محمدٍ – ﷺ – من الشرائع في بعض الأوقات، ثم يُظهِروا بعد ذلك تكذيبه، فإن الناس متى شاهدوا التكذيب قالوا: هذا التكذيب ليس لأجل الحسد والعناد، وإلا لما آمنوا به في أول الأمر، وإذا لم يكن هذا التكذيب لأجل الحسد والعناد وجب أن يكون ذلك لأجل أنهم أهل الكتاب وقد تفكروا في أمره واستقصوا في البحث عن دلائل نبوته فلاح لهم بعد التأمل التام، والبحث

---

(١) هذا جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الوحي، باب بدون ترجمة، ص/٧ برقم (٧).

(٢) تفسير المنار، ٣/٣٣٣،٣٣٤.

الوافي أنه كذاب، فيصير هذا الطريق شبهة لضعفة المسلمين في صحة نبوته .. لعلهم يرجعون عن دينه، ويُحتمل أن يكون معنى الآية أن رؤساء اليهود والنصارى قال بعضهم لبعض نافِقُوا وأظهروا الوِفاق للمؤمنين، ولكن بشرط أن تثبتُوا على دينكم إذا خلوتم بإخوانكم من أهل الكتاب، فإن أمر هؤلاء المؤمنين في اضطراب فزجوا الأيام معهم بالنفاق فربما ضعف أمرهم واضمحل دينهم ويرجعوا إلى دينكم .. وهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة: ١٤] ..والفائدة في إخبار الله تعالى عن تواضعهم على هذه الحيلة : أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب، فلما أَخبر الرسول – ﷺ – عنها كان ذلك إخباراً عن الغيب، فيكون مُعجِزاً، وأنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطؤهم على هذه الحيلة لم يصل لهذه الحيلة أثر في قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلان لربما أثرت هذه الحيلة في قلب بعض من كان في إيمانه ضعف ..)[١].

ولقد كانت هذه الطائفة – من الأحبار والرهبان – من الخُبث بمكان، لذلك كانوا يحذرون أن ينقلب السحر على الساحر، وبدلاً من أن يشككوا المؤمنين في صحة الإسلام، يحصل العكس لأتباعهم فيدينوا بالإسلام، من أجل ذلك عادوا يكررون التأكيد على الإصرار على التمسك بدينهم، فقالوا :(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) – قال الفخر الرازي: (اتفق المفسرون على أن هذا

---

(١) مفاتيح الغيب ٨/١٠٤–١٠٦ بإيجاز.

من بقية كلام اليهود، والمعنى لا تُصدقوا إلا نبيّاً يُقرر شرائع التوراة فأما من جاء بتغير شيء من أحكام التوراة فلا تُصدقوه، وهذا مذهب اليهود إلى اليوم ..)[١].

وقال أبو حيان: (قال ابن عطية: لا خلاف بين أهل التأويل أن هذا القول من كلام الطائفة، وليس كذلك، بل من المفسرين من ذهب إلى أن ذلك من كلام الله يثبت به قلوب المؤمنين لئلا يشكُّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم .. بدليل أن الله تعالى قال لنبيه :(قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّه..)أي قل لأولئك اليهود: إن الهدى هدى الله لاما رُمتُم من الخداع بتلك المقالة، وذاك الفعل، لمخالفة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، فتذهب رئاستكم، ويشارككم أحد فيما أوتيتم من فضل العلم، أو يحاجوكم عند ربكم، فيقيمون عليكم الحجة، إذ كتابكم طافح بنبوة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وملزمٌ لكم أن تؤمنوا به وتتبعوه ..)[٢].

قلتُ: وما قاله أبو حيان رغم أنه ليس قول الأكثرية إلا أنه وجيه جداً ولم يخرج عن الآية في شيء والنص يحتمله.

ولليهود مواقف أخرى كثيرة في التلبيس والتشكيك لإضلال المؤمنين، ومنها:

إثارتهم الشكوك حول تحويل القبلة:

فمن المعلوم أن المسلمين كانوا في مكة يستقبلون الكعبة في الصلاة، فلما هاجروا إلى المدينة وُجَّهوا إلى بيت المقدس، ثم جاء الأمر القرآني بعد

---

(١) مفاتيح الغيب ١٠٦/٨،١٧٠ .

(٢) البحر المحيط في التفسير ٢١٢/٣، وانظر: تفسير ابن عطية ٤٥٤/١ .

ستة عشر أو سبعة شهراً بالتوجه إلى البيت الحرام[١]، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس – وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى – سبباً في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة، وأنهم الأصل، فأولى بمحمد ومن معه أن يفيؤا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وفى الوقت ذاته كان الأمر شاقاً على المسلمين من العرب الذين أَلِفُوا في الجاهلية تعظيم البيت الحرام، وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر واتخاذه حجة عليهم[٢].

وقد كان النبي – ﷺ – يقلِّب وجهه في السماء متجهاً إلى ربه دون أن ينطق لسانه بشيء تأدباً مع الله وانتظاراً لتوجيهه... حتى نزل قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٤٤]

عندئذ انطلقت أبواق اليهود وقد عزّ عليهم أن يتحول محمد – ﷺ – والجماعة المسلمة عن قبلتهم، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في

(١) انظر صحيح البخاري : كتاب التفسير ، باب سيقول السفهاء .. ، ص /٨١٤ برقم (٤٤٨٦) .

(٢) في ظلال القرآن :سيد قطب ١٢٥/١ .

تعاظمهم وفى تشكيك المسلمين في قيمة دينهم، انطلقت تُلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفى أساس عقيدتهم... قالوا لهم إن كان التوجه فيما مضى إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة، وإن كانت حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها .. وعلى أية حال فإن هذا النسخ للأوامر– أو للآيات – لا يصدر من الله، فهو دليل على أن محمداً لا يتلقى الوحي من الله [1]!

ويبدو أن كلام اليهود قد ترك أثراً ضخماً في نفوس المسلمين، حتى كانوا يأتون النبي – ﷺ – فيسألونه – كما روى ابن عباس – قال : (مات قوم كان يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله تعالى: (وما كان الله ليضيع إيمانكم) [2].

والواقع أنه وإن ذُكرت عدّة روايات في سبب نزول هذا المقطع قد يظهر منها تعدد الأسباب وراء نزول هذه الآيات [3]، إلا أن المقطع كله بدءًا من قوله تعالى: (سيقول السفهاء) نزل لتجلية الأمر، وكشف خبث اليهود ومرادهم في تشكيك المسلمين وتمنيهم إضلالهم عن الحق، ومن أهم ما اشتمل عليه هذا السياق:

١– وصف اليهود بالسفهاء من أجل ما فعلوه، من تشكيك المسلمين لردهم عن دينهم (سيقول السفهاء من الناس) وكان مقتضى الحكمة أن

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٢٦، وانظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ٢/١٢٣.

(٢) رواه الترمذي في سننه : كتاب التفسير، باب سورة البقرة، ص/٨٤٢ برقم (٢٩٧٥) وقال: (حسن صحيح)

(٣) راجع أكثر الروايات: في تفسير الطبري ٢/٢٢–٢٦، وأسباب النزول: للواحدي، ص/٢٣،٢٤

يناصروا هذا الدين لا أن يعادوه، بل يصل سفههم لحد مناصرة المشركين على المؤمنين، وامتداح دينهم وتفضيله على دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١]

٢- الرد على تلك الشبهة التي أثاروها معترضين على التحول عن قبلتهم، بأن المشرق والمغرب لله، وهو الذي من حقه أن يأمر عباده بالتوجه إلى أي جهة،(قل لله المشرق والمغرب.يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

٣- وفيه – أيضاً – فضح اليهود بأنهم لا يفعلون هذا التشكيك لجهلهم أو لعدم معرفتهم، بل لضلالهم وحسدهم للمسلمين، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١] ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة وهي مثل يُضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه ..

٤ – وفيه كذلك تحذير للمسلمين من التأثر بأراجيف اليهود التي أرجفوا بها ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٥٠] أي فلا تخشوا شُبَه الظلمة المتعنتين وأفرِدُوا الله بالخشية[١].

ومما سجله القرآن من محاولات اليهود لإضلال المؤمنين:

كلامهم حول النسخ فإنهم لما حسدوا المسلمين في التوجه إلى الكعبة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، ١٢٤/٢، وفي ظلال القرآن ١٣٥/١،١٣٦.

جعلوا يشككون ويطعنون في الإسلام، فقالوا: إنّ محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمرٍ وينهاهم عنه غداً، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، ما هو القرآن إلا من عند محمدٍ وأنه يُناقِض بعضه بعضاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٦]

وسواء كان سبب نزول هذه الآيات هو مناسبة تحويل القبلة – كما يدل عليه السياق – أو كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأمور والتشريعات، التي كانت تُتَابع نُموَّ الجماعة المسلمة، وأحوالها المتطورة، أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومه للتوراة، سواء كانت هذه أم هذه، فإنها جميعاً مناسبات اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك في صُلب الدين، وجاء القرآن هنا بهذا البيان الحاسم للقضاء على تلك الشبهات التي أثارتها اليهود، على عادتها وخطتها في محاربة هذا الدين[١].

هذه بعض الصور التي سجلها القرآن الكريم من أساليب اليهود في محاولتهم تشكيك المسلمين لإضلالهم عن الحق، هذا فضلاً عن الأسئلة التي كانوا يوجهونها إلى النبي – ﷺ – مباشرة، أو يلقونها للمشركين ليسألوا بها النبي – صلى الله عليه وسلم، وتحليل ذلك أنهم حين عجزوا عن محاربة المسلمين عسكرياً لجأوا إلى أسلوب المكر والخداع والوقيعة، واستعانوا على ذلك بنفر من المنافقين، وحين يجدون أدنى ميل واتباع من جانب المسلمين فإنهم بلا شك سيستخدمون ذلك كله لإضلال المسلمين وإرجاعهم كفاراً.

---

(١) في ظلال القرآن ١٠٢/١ بتصرف ، وانظر: تفسير التحرير والتنوير ٦٥٤/١.

صور من محاولات أهل الكتاب إضلالَ المؤمنين بعد عصر النبوة:

إنّ ما سبق ذكره كسبب لنزول قوله تعالى: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ..) لا يحصرها في اليهود وحدهم، ولا النصارى وحدهم، بل يشملهما، ولا يقف بها عند زمن نزولها فقط، ولا عند الحيلة التي وردت فيها من حيلهم لتشكيك المسلمين، بل كل حيلة لتلبيس الدين في كل زمان ينطبق عليه هذا النص القرآني.

وأخطر تلك المحاولات التي كانت بعد عصر النبوة، هي التي صاحبت إسلام نفر من أهل الكتاب، بدأوا يعودون إلى الجزيرة العربية تحت ستار الإسلام، وقلوبهم مليئة بالحقد على أهله، ظهرت في خطة مرسومة على هذا النحو، بأن يمارس البعض القصص، ويبث من خلالها أفكار الديانات السابقة، خاصة الإسرائيليات، ثم أخذت الخطة طريقاً آخر وهى إثارة الناس على الخليفة الثالث عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وتولى كِبر هذا الإفك عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وكان يهودياً ثم أسلم، لكن الأحداث التي صنعها وشارك فيها تدل على أنه كان يخفى يهوديته تحت ستار الإسلام.

وألقى اليهود بفكرة الإمام المعصوم، وخاتم الأوصياء كبذرة للفتنة ، وعبد الله ابن سبأ كيهودي متمرس لا يمكن أن يُلقِي ما يريد مباشرة ، ولكنه بث أفكاراً وانتهى منها إلى أن: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذِّب بأن محمداً يرجع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ ﴾[القصص: ٨٥]

فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، فقُبِل منه ذلك ووضَع لهم الرجعة فتكلموا فيها، ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألفُ نبي، ولكل نبي وصيٌّ، وكان

عليّ وصيَّ محمدٍ، ثم قال: محمدٌ خاتم الأنبياء وعليٌّ خاتم الأوصياء، ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يُجِز وصية رسول الله – ﷺ – ووثب على وصيّ رسول الله – ﷺ – وتناول أمر الأمة، ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصيُّ رسول الله – ﷺ – فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه، وابدؤا بالطعن على أُمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا النّاس إلى هذا الأمر، وبث دعاته، وكاتَبَ من كان استفسد من الأمصار وكاتبوه، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار كتباً يضعونها في عيوب وُلاتِهم، وأَوسَعُوا الأرض إذاعةً وهم يريدون غير ما يظهرون(١).

وحتى بعد مقتل عليٍّ – رضي الله عنه – قال ابن سبأ: كما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى، كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل عليّ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شبهوه بعيسى، كذلك القائلون بقتل عليّ رأوا قتيلاً يشبه عليًّا فظنوا أنه عليّ، وعليٌّ قد صعد إلى السماء وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه(٢).

وهكذا فعل ابن السوداء: أوَّل آياتٍ من القرآن أخرجها عن المعنى المتفق عليه والمتعارف – يومئذ – بين الصّحابة، فقد فسر المعاد في الآية بالرجوع بعد الموت، وهذا ما يُعرَف بعقيدة الرجعة، بدأ بها عبد الله بن سبأ، وانتشرت من بعده عند الغلاة من الشيعة، وهذا ما جعل بعض الباحثين كجولد

---

(١) انظر: الفتنة ووقعة الجمل رواية سيف بن عمر الضبي: جمع وتصنيف: أحمد رابت عرموش، طبعة دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، ص /٤٨، ٤٩.

(٢) انظر: الفرق بين الفرق: عبد القاهر بن طاهر البغدادي، طبعة دار الجيل، بيروت، ص /٢٣٤.

زيهر يقرر أن عقيدة الرجعة ليست من وضع الشيعة أو من عقائدهم الخاصة، وإنما هناك احتمال أنها تسربت إليهم عن طريق مؤثرات خارجية منها اليهودية[١].

هذا والمتتبع لمحاولات اليهود في إضلال المسلمين وتشكيكهم سوف يطول به الأمر لوجود تلك المحاولات في كل عصر، في ثوب معين يتناسب مع ظرف ذلك الزمن، وتكفى الإشارة هنا إلى ضلوع اليهود في دعم بل وتأسيس الحركات الباطنية الهدامة، التي كانت تهدف إلى تقويض الإسلام من داخله، عن طريق التشكيك والإضلال، وربما ساعدهم في ذلك الحرية الفكرية والعلمية التي تمتعت بها الساحة الإسلامية في مختلف العصور، فقامت جماعات بأكملها تشكك في عقيدة المسلمين، وتُلقِي بأفكار جديدة، يراد منها تفسير القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تفسيراً يخدم مآربها، وقد تكلم العلماء الذين اهتموا بالتأريخ للفِرق عن الفِرق الباطنية، وعن صلتها بالفكر اليهودي، مما جعل الدكتور أحمد شلبي يؤكد أن الباطنية أعظم حركة هدامة عرفها الإسلام، وأنها كانت من صُنع اليهود، ومن أبرز رموزها ميمون بن ويصان القداح، وحمدان بن قرمط، وابن الراوندي الذى عارض القرآن في كتاب سماه التاج، وآخر سماه الدامغ، ونحو مائة وأربعة عشر كتاباً أخرى في هذا الباب[٢]،

---

(١) انظر: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام: د. يحي هاشم حسن، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٤م ص /١٦٣.

(٢) انظر: اليهودية : د. أحمد شلبي ، ص/ ٣١٠ ، والاختراق اليهودي للمجتمعات الإسلامية: د. فرج الله عبد الباري، ص/٤٢ – ٤٨ ، واليهود يزيفون تاريخ العالم : محمد عبد الواحد حجازي ، طبعة دار الوفاء ، الإسكندرية ٢٠٠٥ ص / ٣٣٠ .

ناهيك عن جمعياتهم السرية في العصر الحديث، والتي تحمل أسماء وهمية تنفذ من خلالها إلى ما تريد، و يبقى بعد كل هذا أن يُصغِي المسلمون مرة أخرى إلى قول ربهم: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]

أحدث محاولات الكافرين للإضلال:

لقد اتفقت وتلاقت جهود الطائفتين من أهل الكتاب، اليهودية والنصرانية المتطرفة في الآونة الأخيرة على اختلاق خطة جديدة لتدمير الإسلام، تدميراً يحطم الأصول، ويبيد الفروع، ويستبدل بها عملاً هو المسخ الشائه الذي لا يمت إلى الأصل بِصِلَة .. والخطة تهدف إلى إزالة القرآن الكريم من الوجود، وذلك باختلاق كتاب مزعوم يقوم مقامه، وقد اشترك اليهود والنصارى المتطرفون في الإدارة الأمريكية في تأليف كتاب أسموه الفرقان الحق، وكأن الفرقان الذي بأيدي المسلمين باطل في باطل، ولقد بدأ العمل في هذا الكتاب منذ اللحظة التي بارك فيها الحرب الرئيس الأمريكي جورج بوش الذي أعلن أنه مبعوث العناية الإلهية في سبيل اليهودية والمسيحية، ثم بلغ الكتاب أجله وصدرت الطبعة الأولى من الجزء الأول، ووُزِّع على كبار الخبراء والمهتمين .. وعلى المكتبات الكبرى في أوربا وأمريكا، ثم النوادي الرياضية والهيئات الاجتماعية ليحقق انتشاراً جماهيرياً على أوسع نطاق.

ولقد أخذت زُمَرٌ يهوديةٌ مغالية في إسرائيل على عاتقها تفسيرات مختلفة لذلك الكتاب المختَلق، وذلك بإقامة دراسات مقارنة بينه وبين القرآن الكريم،

وذلك حتى يقتنع المسلمون أن كتابهم من صُنع إنسان ولم يُوحَ به من الله .. وكأنهم يدرءون بهذا عن كتبهم صبغة الصنعة البشرية التي لا شك فيها[١].

ومن أخطر ما جاء في التمهيد الذي أعده لهذا الكتاب شامحوم مينان – أحد المتطرفين اليهود المشاركين في لجنة العمل لنشر كتاب (الفرقان الحق) قال: (القدس هي بيت العبادة الأعلى لأمة موسى وعيسى، وأن السماح للمسلمين بارتياد هذا المكان لأداء طقوس غير مفهومة، أو ممارسة اجتماعات إرهابية هو جريمة وذنب لن يغفره الله للبشر جميعاً، لأننا سمحنا لهؤلاء الفاسقين بارتياد مكان عبادته الرئيسي .. ثم قال: أنا لا أفكر مثل ما تفكرون في أن يُهدم معبد المسلمين (الكعبة)، فهذا سيثير حنقهم وغضبهم إلى أعلى مراتب الانفعال النفسي، ولكن بمقدورنا أن نجعلهم ينظرون إلى الكعبة على أنها حجر بناه الأسلاف، وأنه ليس مكاناً للعبادة، لا بد أن نجعلهم يتجهون معنا إلى قدس الأقداس في مدينة القدس والسلام .. إن الأكثر أهمية: هو الهدم الفكري لمعتقدات راسخة، وأفكار بالية ما زال يؤمن بها المسلمون، ويعتقدون بأنها الأصوب .. وإن أجزاء الفرقان الجديد يجب ألا تكون متعارضة بصفة مطلقة مع القرآن، بل إن المهمة الأساسية التي يجب أن نكرّسها هي كيفية تحقيق التلاقي بين كتبنا الدينية وكتابهم المقدس فالأخير يحتوى على العديد من المبادئ الهدامة وغير المفهومة للصراع مع الآخرين، وإن هذه المهمة قد تبدو شاقة إلا أنه يمكن تحقيقها من خلال المفكرين والنابهين الذين سجلوا أروع ملامح التقدم الإنساني في العصر الحديث، فعلى سبيل المثال فإن واحداً من

(١) انظر: اليهود يزيفون تاريخ العالم : محمد عبد الواحد حجازي ، ص/ ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

المبادئ المشتركة التي يجب أن يحرص الفرقان الحق على إبرازها هو ذلك المتعلق بحقوق الإنسان والديمقراطية ذات المبادئ المتشعبة .. وإن نشر هذا المشروع لن يعتمد فقط على الوسائل التقليدية في نشر الكتب، فالمهمة الأساسية هي إقناع كل دول وشعوب العالم المتميزين بأننا في سبيلنا لإنشاء الفرقان الحق أو الكتاب الجديد للقرآن من أجل نشر الإخاء والمودة بين مجموع الإنسانية ..) [(١)].

ومما جاء في التمهيد لهذا الكتاب – أيضاً – على ألسنة المتطرفين من اليهود الذين شاركوا في إعداده: (يجب ألا يكون الفرقان الحق مبشراً فقط بالديانة المسيحية، ولكن يجب أن يبشر بلغة مشتركة وفكر واحد عن الديانتين اليهودية والمسيحية معاً، فاليهودية لن ترتدى ثوب المسيحية، ولن نحاول أن نتعارض معهم، فكل منا يسير في طريق إلى الرب وفى هدى الإنسانية، إن حق الاختيار يجب أن يكون مكفولاً لكل فرد في هذا العالم، إما بالتوجه إلى اليهودية أو المسيحية، وحتى يتم تحقيق ذلك فإن مبادئ اليهودية لابد أن تتعمق بقدر متواصل عبر كل الوسائل الحديثة...ويرى المتطرفون اليهود: ضرورة أن يكون هناك جزآن على الأقل من الفرقان الحق يتناولان فقط الديانة اليهودية، وجزآن آخران للنيل من أفكار ومبادئ الإسلام الهدامة، وجزآن للتبشير بالدين الجديد في العهد الجديد، وجزآن خاصَّان بالمبادئ المشتركة الأساسية بين كل الأديان السماوية، وجزآن عن مدى التحريف والضلال الذى أصاب كتاب المسلمين . . وأن تتم الاستفادة من الوسائل الجديدة للنشر) [(٢)].

---

(١) اليهود يزيفون تاريخ العالم ، ص/ ٣٤٩، ٣٥٠ .

(٢) اليهود يزيفون تاريخ العالم ، ص/ ٣٥١ ، ٣٥٢ .

ومما ورد في موضوعات هذا الكتاب – أو سُوَرِه كما يسمونها:(الطيب لا يؤمن إلا بإله السماء، والشرير لا يؤمن إلا بآلهة الأرض...تلك الآلهة التي ما كان لها مُبتغَى إلا النَّيل من كلمات السماء وتحريفها عن مواضعها الحقيقية، حتى تبدو وكأنها مبتورة ناقصة غير ذات معنى.. والطيب بحسه الصادق، وإدراكه المتميز المتعالي هو القادر على أن يميز بين الحق وعدمه وبين الخير ونقيضه، بين الشر ومعانيه، إن آلهة الأرض لا طائل لهم إلا اقتتال البشر وهدم منازلهم، وجعل لقمة عيشهم في بيوتهم غير صالحة لأن يأكلها الجائع.. وهكذا أرادوا أن تكون الحياة.. وهذه الإرادة الشريرة لا تعبر عن حياة السماء . . إن العدالة جسَّدها المسيح عيسى والنبي موسى وسبقهما الكثير . . وكان لإبراهيم روح واحدة للعدالة . . إن حياة الأرض ستعلو شيئاً فشيئاً حتى تكون مثل حياة السماء . . فلنبدأ مجدنا المشترك بالأخوة والمحبة . . إن إله السماء هو رب كل البشر، وهو خالق كل البشر، ونحن جميعاً نعبده، ولكن الآخرين[١] قصروا العبادة عليهم فقالوا: (..هو سماكم المسلمين من قبل) فهو تشبيه يضر بالإنسانية، ويقسمها إلى طوائف غير متحدة في المعاني والأهداف وأنماط الحياة. .نحن نعيش على كوكب واحد .. وكل ما في هذا الكوكب يخضع للإله العظيم . . فالمخطئ يمكن أن يتوب.. فلنكن معاً طريقا واحداً، نعبد جميعاً ما نحن عابدون إله عظيم ، ولا نقول : لكم طريقكم ولى طريق .. فالطريق واحد لأن الأمنية واحدة ، والهدف واحد . . فلابد أن تكون الوسيلة واحدة. . عشنا وكلنا سنموت .. وسيكون لنا جزاء مشترك ..أصلنا واحد. .فلابد أن يكون ديننا

(١) يقصد بالآخرين : المسلمين !! .

واحد، قد نختلف في اللغة، وقد نختلف في اللون إلا أن ذلك لا يعطل سيرنا نحو بناء نموذج الإنسانية العظيم)[1].

إذَن: نحن أمام مخطط مشروع خطير لإضلال المؤمنين، يرتكز على:

١- استغلال النقاط المشتركة بين الناس عموماً، للنفوذ من خلالها والتسلل لاختراق المجتمعات الإسلامية، مثل: حقوق المرأة، وحقوق الإنسان، والديمقراطية، والعدالة، والمساواة، والإخاء والمحبة . . وهذه نفس وسائل الماسونية من قبل.

٢- الدعوة إلى وحدة الأديان، وما أخطرها من دعوة، إنها تهدف إلى هدم كل الأديان.

٣- الخبث والمكر في توجيه الأفكار، بالخداع والتشكيك، وتحقيق ذلك من خلال الغزو الفكري، مع استعمال كل الوسائل، وعدم الاقتصار على التقليدي منها.

٤- التعاون بين اليهود والنصارى، رغم ما بينهم من العداوة والبغضاء، وهذه الركيزة لها مؤسسات تدعمها وتخطط لها وتحققها في الواقع، إنها مؤسسات الصهيونية المسيحية[2].

ويجب على المسلمين أن يأخذوا حِذرهم من كل وسائل التشكيك التي يقذف بها الكافرون لتضليلهم عن دينهم، واثقين أنهم لن يضرونا إلا أذًى، وأنهم ما يُضِلُّون إلا أنفسهم وما يشعرون.

---

(١) اليهود يزيفون تاريخ العالم ، ص/ ٣٥٥ .

(٢) انظر: الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية : محمد السماك ، طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي ، ص/٣٥ وما بعدها.

الكافرون يجهرون بإصرارهم على إضلال المؤمنين:

وقد أدرك الكافرون أن سر قوة المسلمين وتمسكهم وثباتهم على دينهم، هو القرآن الكريم، الذي يحتوى على المنهج الواضح، والذي يكشف خططهم، ويحذر المسلمين من أعدائهم، لذلك سعوا للتشكيك فيه، وتوهموا القدرة على القضاء عليه، وجهروا بهذا الأمر وأعلنوه:

يقول غلادستون رئيس وزراء بريطانيا – الأسبق: (ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان . .)(١).

ويقول المنصر وليم جيفورد: (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة الغربية بعيداً عن محمد وكتابه)(٢).

ويقول المنصر تاكلي: (يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام ، ضد الإسلام نفسه، حتى نقضى عليه تماماً، يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً)(٣).

وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر – وقت أن كانت مستعمرة فرنسية – في ذكرى مرور مائة سنة على استعمار الجزائر: (إننا لن ننتصر على الجزائريين

(١) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله : جلال العالم ، ص/٤٠ ، والإسلام على مفترق الطرق : محمد أسد ، ص/٣٩ .

(٢) جذور البلاء : عبد الله التل ، ص/٢٠١ .

(٣) التبشير والاستعمار في البلاد العربية : عمر فروخ ، ومصطفى الخالدي ، ص/٤٠ .

ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم ..)[1].

وقال الكاتب الصهيوني أيرل بوغر في كتابه العهد والسيف الذي صدر عام ١٩٦٥ ما نصه: (إن المبدأ الذي قام عليه وجود إسرائيل منذ البداية، هو أن العرب لابد أن يبادروا ذات يوم إلى التعاون معها، ولكي يصبح هذا التعاون ممكناً ، فيجب القضاء على العناصر التي تغذى شعور العداء ضد إسرائيل في العالم العربي، وهى عناصر رجعية تتمثل في رجال الدين والمشايخ)[2].

وقال تكلى – أيضاً: (يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني؛ لأنّ كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن، حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية)[3].

وحتى في المؤتمرات التي تعقد لحوار الأديان، والتي ينبغي أن يكون الخطاب فيها دالاً على حسن النية في الحوار، لكن لا يفتأ الكفار يجهرون بالإصرار على إضلال المؤمنين، يقول تيودور خوري – في ندوة أقيمت لهذا الشأن في معهد القديس جبرائيل بلبنان سنة ١٩٩٣ : (تحت عنوان: هل من جديد في الوحي القرآني: إن مفهوم الوحي في النطاق المسيحي يعنى كشف الله عن نفسه وحدثاً يبين الله فيه للناس شيئاً جديداً، هذا المفهوم لا يمكن تطبيقه

---

(١) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام ... جلال العالم ، ص/٤٠ ، نقلاً عن مجلة المنار عدد بتاريخ ٩/١١/١٩٦٢م .

(٢) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام . . . ، ص/٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص/٧٣ ، والتبشير والاستعمار في البلاد العربية ، ص/٨ .

مباشرة على الإسلام، فالإسلام لا يقول بوحي غرضه إبلاغ محتويات جديدة، فالوحي في مفهوم الإسلام يقوم بأن الله نفسه – بسلطانه الخاص – يضمن أن ما يرد في القرآن يطابق فعلاً ما يعنى، أما هل يأتي هذا بالجديد، فذلك ما يجب التمييز في الإجابة عنه . .)[١].

ويقول نويمان في نفس الندوة: (القرآن يذكر بما كان معروفاً منذ بدء الخليقة، وما يجب على كل أحد أن يعرفه وما يصل إليه العقل ، بهذا المعنى لا يمكن التكلم على محتويات وحى في الإسلام تكشف اليوم لأول مرة، كما يتكلم بولس على السر المكتوم الذي تجلى بواسطة الكنيسة، والذي حدده الله منذ دهور ..)[٢].

أليس هذا الكلام هو عين الكلام الذي تكلم به المنصر تاكلي من قبل بلهجة عدائية في الإعلان عن إصرارهم على إضلال المسلمين باستخدام القرآن نفسه ، فرقُ ما بينهما لهجة الحديث في مجالس حوار الأديان تُخفف فيها حِدَّة العداء ، وتُكسَى بثوب فلسفي لتُقَبل عند المسلمين !.

---

(١) العقيدة المسيحية في لقاء مع الإسلام: أندراوس بشتة، وعادل خورى، طبعة المكتبة البولسية، لبنان ، ٢٠٠٢، ص/٢٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص /٢٥١ .

المبحث الرابع

تمنِّي الكافرينَ أن يَلِينَ لهم المؤمنون

قال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [سورة القلم: الآية/٩]

قال الإمام الطبري: (اختلف أهل التأويل، فقال بعضهم: معنى ذلك ودّ المكذبون بآيات الله لو تكفر بالله يا محمد فيكفرون، قاله ابن عابس والضَحَّاك وسُفيان، وقال آخرون: بل معنى ذلك: ودّوا لو ترخص لهم فيرخصون، أو تلين في دينك فيلينون في دينهم، قاله ابن عباس – أيضاَ – وقال مجاهد: ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق.. وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك وَدَّ هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك، بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم، فيلينون لك في عبادتك إلهك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤] وإنما هو مأخوذ من الدهن، شَبَّه التليين في القول بتليين الدهن)[١].

(وفى هذه الآية يكشف الله تعالى لنبيه – ﷺ – عن حقيقة حال الكافرين وعن حقيقة مشاعرهم وهم يخاصمونه ويجادلونه في الحق الذي معه، ويرمونه بما يرمونه، وهم مُزعْزَعُوا العقيدة فيما لديهم من تصورات الجاهلية، التي يتظاهرون بالتصميم عليها، فإنهم على استعداد للتخلي عن الكثير منها في مقابل أن يتخلى هو عن بعض ما يدعوهم إليه، على استعداد أن يدهنوا ويلينوا

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٤/٢٩، وانظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ٨٨/١٤ والبحر المحيط : لأبى حيان ٢٣٨/١٠.

ويحافظوا فقط على ظاهر الأمر، لكي يُدهِن هو لهم ويلين، فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق، وإنما أصحاب ظواهر يُهِمُّهُم أن يستروها...فهي المساومة إذن، والالتقاء في منتصف الطريق، كما يفعلون في التجارة، وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير، فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها؛ لأن الصغير منها كالكبير، بل ليس في العقيدة صغير وكبير، إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء، لا يطيع فيها صاحبها أحداً، ولا يتخلى عن شيء أبداً، وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، ولا أن يلتقيا في أي طريق، وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان... إن الهوة بينها وبين الإسلام لا تعبر، ولا تقام عليه قنطرة، ولا تقبل قسمة ولا صلة، وإنما هو النضال الكامل الذي يستحيل فيه التوقف)[١].

غاية الكافرين من أن يلين لهم المؤمنون:

وقد كان الكافرون يهدفون من تمنيهم أن يلين لهم النبي – ﷺ – ويداهنهم: أن يفتنوه عن حقيقة دعوته التي يدعو إليها، ويجعلوها دعوة شكلية لو قَدِرُوا على ذلك، وأن يعترف بهم وبدينهم، في مقابل أن يعترفوا به وبدينه، وهذا أمر ليس بالهيِّن أن يعترف الحق بالباطل ولو في مقابل أن يعترف الباطل به، لأن الباطل في اعترافه بالحق لم يخسر ولم ينقص شيء فهذا أمر طبيعي، أما الحق فإنه يخسر كثيراً في اعترافه بالباطل، يخسر قيمته، لأن قيمته أساساً في إنكار الباطل ومعاداته.

وقد سجّل القرآن الكريم مضمون تلك الغاية التي كان يهدف الكافرون

(١) في ظلال القرآن ٣٦٥٨/٦.

إليها من محاولاتهم في فتنة النبي – ﷺ – وهي أن يُبَدِّل دين الله، وأن يُجِيبَهم إلى ما يطلبون، ومن ثمّ يشكِّل لهم ديناً يوافق هواهم، وهم على أتم الاستعداد لقبوله، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [يونس: ١٥]

وقال عز وجل – أيضاً: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٣].

لقد كانوا يتمنون أن يخفف محمد – ﷺ – من شدته في انتقاد دينهم، وتسفيه آلهتهم، وتقبيح عاداتهم، ولو حصل هذا لأصبحوا أولياء له بعد معاداتهم إياه.

قال الطبري: (يقول تعالى ذِكْرُه: ولو فعلتَ ما دَعوْكَ إليه من الفتنة عن الذى أوحينا إليك لاتخذوك لأنفسهم خليلاً، وكنت لهم وكانوا لك أولياء)[١].

وقال الزمخشري: (أي ولو اتبعت مرادهم: لكنت لهم وليّاً ولخرجتَ من ولايتي)[٢].

وقال الفخر الرازي: (أي ولو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً، ولأظهروا للناس أنك موافقٌ لهم.. وراضٍ بشركهم)[٣].

ولا بد أن يكون المؤمنون دائماً على حذر من محاولات الكافرين التي يريدون منها فتنة المؤمنين، فإذا كان الله تعالى قد قال في حق نبيه – ﷺ: (ولو لا

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القران ١٥/١٤٧.

(٢) الكشاف: للزمخشري ٢/٤٦٠ وانظر: البحر المحيط ٧/٩٠.

(٣) مفاتيح الغيب : للرازي ١١/٢٢.

أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً) أي: قاربوا وأوشكوا، وهو المعصوم بتثبيت الله له، فما بال من دونه؟!.

قال القاسمي: (إنّ المشركين لكثرة تفننهم في ضُروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم كادوا أن يفتنوه، ولكن عناية الله وحفظه، هو الذي ثبَّت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره،.. وقال الزجاج .. معنى الكلام كادوا يفتنونك، ودخلت أَنْ المخففة من الثقيلة واللام للتأكيد، والمعنى: أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي: يخدعوك ويصرفوك عن القرآن: أي عن حكمه، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوا مخالفة لحكم القرآن)[1].

وقال الطبري: (يقول الله تعالى ذِكْرُه: ولو أن ثبتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة، لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، يقول: لقد كدت تميل إليهم وتطمئن شيئاً قليلاً، وذلك ما كان – صلى الله عليه وسلم – همّ به من أن يفعل بعض ما سألوه فِعْلَه...)[2]، (وهذا تهييجٌ من الله له وفضلُ تثبيتٍ، وفي ذلك لُطْف للمؤمنين..)[3].

سبب نزول هذه الآية: رُوي (أن ثقيفاً قالوا: لا نؤمن حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب: لا ننحني في الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها، فإن خشِيتَ أن يسمع العرب لِمَ أعطيتهم

---

(١) محاسن التأويل: للقاسمي ٦/٤٩٩،٤٩٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٩/١٤٧.

(٣) الكشاف: للزمخشري ٢/٤٦٠، والبحر المحيط: لأبي حيان ٧/٩٠.

ما لم تُعطنا؟ فقل: الله أمرني بذلك، فهمّ رسول الله أن يعطيهم وأن يؤجّلهم فقال الله : ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً)[1] وقيل غير ذلك.

وقال الفخر الرازي: (قال القفَّال: ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يُضَاف نزولها فيه، لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعَوْن في إِبْطال أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأقصى ما يقدرون عليه، فتارة كانوا يقولون: إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١] وقوله: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[القلم: ٩] وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنِّسْوَان الجميلة ليترك ادّعاء النبوة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [طه: ١٣١] ودَعَوْه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢] يجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب، وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه، وأن يُزِيلوه عن منهجه، فبيَّن الله تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم...)[2].

وليس في الآية ما يشير إلى انتفاء العصمة عنه – ﷺ – أو أنه أجابهم فعلاً إلى ما طلبوا، ولكن كل ما هنالك ذِكْرٌ للمُقَاربة من الفتنة، وهذا القدْرُ لا يدل على الوقوع في تلك الفتنة[3].

وقال ابن عباس: (كان الرسول – ﷺ – معصوماً، ولكن هذا تعريفٌ للأمة

---

(١) أسباب النزول: للواحدي، ص/١٦٢.

(٢) مفاتيح الغيب: للرازي ٢٤،٢٣/١١ ومحاسن التأويل : للقاسمي، ٥٠٠/٦ .

(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٢٣/١١.

لئلا يَرْكَنَ أَحدٌ منهم إلي المشركين في شيء من أحكام الله تعالى وشرائعه)[١]، وهذا يعنى أن الخطاب له والمراد الأمة.

وعيد لله تعالى لَمن لاَنَ للكافرين: لقد توعّد الله – عز وجل – من يلين للكافرين من المؤمنين، لأن في ذلك ما يؤدى إلى الرضى عن ما هم عليه من الكفر، والآيات في هذا الصدد كثيرة جداً، منها قوله تعالى:

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [سورة الإسراء، :٧٥]

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ٥٢]

وذلك في النهى عن طرد المؤمنين استجابة وملاينة للكافرين في طلبهم أن يخصص لهم مجلساً غير مجلس الفقراء من المؤمنين، وقال أيضاً: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]

وقال كذلك لنبيه – ﷺ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]

وهذه الآيات وغيرها مِلْؤُها التهديد والوعيد لكل من يُفَكر أن يلين في دين الله ليداهن الكافرين، مُحققاً لهم ما أرادوا مِن صَرْف المؤمنين عن دينهم

(١) البحر المحيط : لأبي حيان ٧/٩٠ .

ومنهجهم القويم، وفَهِم النبي – صلى الله عليه وسلم – هذا الوعيد، وأمر أن يضعه نصب عينيه كلما حاول الكافرون فتنه أو خداعه بمطالبهم التي لا تنقضي، عندما طلبوا إليه تغيير القرآن والإتيان بنص غيره لا يَطال آلهتهم، عُلِّم أن يقول: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦]، وأن يقول: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٦]، أي: إن أجبتكم فيما طلبتم أكون قد وقعت في الضلال، وابتعدت عن طريق الهُدى.

ومن هنا ينبغي أن يكون المؤمن صلباً في دين الله، لا يقبل المساومات، ولا يُقدّم التنازلات التي تضر بإيمانه، وتُضيّع عقيدته، حتى لا يُعرِّض نفسه لو عيد الله – عزّ وجلّ – وبقدر رِقَّة دينه وصلابته يكون ثباته بإذن الله .

والأصل في المؤمنين أنهم أشداء على الكفار، وبهذا مدحهم ربهم عز وجل فقال: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وأمرهم قائلاً: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣]

علماً بأن تلك المواضع التي جاء فيها هذا الوعيد في مواقف ملاينة من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للكافرين، لم تكن بدافع المصلحة أو المنفعة، بل كانت رجاءً منه في هدايتهم وطمعاً في إيمانهم، وقد كان شديد الحرص على هذا، حتى كان القرآن ينزل عليه مخففاً عليه من هذا الشعور: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟

مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]

أي قاتل نفسك ومُهلكها من الأسف على عدم إيمانهم!!

ومن ثَمَّ فالذين يلينون للكافرين من المؤمنين لأغراض دنيوية ومصالح ومنافع هم أحق بهذا الوعيد من باب أَوْلى؛ لأنه إذا امتنعت المُلاينة لهم لتحصيل مكاسب للدعوة فمَنْعها إذا كانت لمكاسب شخصية أوجب وأوكد.

ولا يقي المسلمين من الوقوع في ملاينة الكافرين ومداهنتهم التي يتمنونها – إلا تثبيت الله لهم بعقيدة الولاء والبراء، التي تقضي بقطع كل وجوه المودة للكافرين، وتُعَلِق الإيمان على شرط عدم موالاتهم، وتحكم على من لاينهم وَوَالَاهُم بأنه منهم أي من الكافرين ، والآيات في هذا الموضع كثيرة جداً.

صور من محاولات الكافرين تحقيق أمنية مداهنة المؤمنين لهم:

(ولقد وردت روايات شتى فيما كان يُدهن به المشركون النبي – ﷺ – ليدهن لهم ويلين، ويترك سبَّ آلهتهم وتسفيه عبادتهم، أو يتابعهم في شيء مما هم عليه ليتابعوه في دينه، وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب، على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول، ولكن الرسول – ﷺ – كان حاسماً في موقفه من دينه، لا يدهن فيه ولا يلين، وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانباً، وأحسنهم معاملة... وأحرصهم على اليسر والتيسير، فأما الدين فهو الدين! وهو فيه عند توجيه ربه: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ [القلم: ٨]، ولم يساوم – ﷺ – في دينه وهو في أحرج المواقف العصيبة في مكة ، وهو محاصر بدعوته ، وأصحابه قلائل يُتخطفون ويُعذبون ويؤذَوْن في الله أشد

الإيذاء وهم صابرون، ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغي أن تُقال في وجوه الأقوياء المتجبرين، تأليفاً لقلوبهم أو دفعاً لأذاهم، ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد)[1].

روى ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق قال: (فلما بادى رسول الله – ﷺ – قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه – فيما بلغني – حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا على خلافه وعداوته، إلا من عصم الله منهم بالإسلام وهم قليل مُسْتَخفُون، وحدب[2] على رسول الله – ﷺ – عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله – ﷺ – على أمر الله مظهراً لأمره، لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله – ﷺ – لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب.. عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب بن أمية وأبو البختري واسمه العاص بن هشام .. وغيرهم، فقالوا: يا أبا طالب، ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه ! فقال لهم أبوطالب قولاً رفيقاً ، وردهم ردًّا جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله – ﷺ – على ما هو عليه: يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم اشتد الأمر بينه وبينهم حتى تباعدوا وتضاغنوا وأكثرت

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب ٣٦٥٩/٦ .

(٢) حدب: بمعنى حن عليه، انظر: لسان العرب ٧٣/٣.

قريش ذكر رسول الله – ﷺ – وتذامروا فيه ، وحض بعضهم بعضاً عليه، ثم إنهم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا، من شَتْم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين – أو كما قالوا له – ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله – ﷺ – لهم ولا خذلانه له .. فبعث إليه فقال: يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي : كذا وكذا – للذي كانوا قالوا له – فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، قال : فظن رسول الله – ﷺ – أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، قال: فقال رسول الله – ﷺ: يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته... فقال له أبو طالب: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبداً)(١).

هذه صورة من محاولات الكافرين يستعملون فيها أسلوب الضغط ليلين لهم النبي – ﷺ – ويدهن، ولكن هيهات، وفى المقابل صورة أخرى من محاولاتهم استعملوا فيها العرض والمساومة، رواها أيضاً ابن إسحاق عن محمد ابن كعب القرظي، قال : (حُدَّثت أن عتبة بن ربيعة – وكان سيداً – قال يوماً وهو جالس في نادى قريش، ورسول الله – ﷺ – جالس في المسجد وحده: يا

(١) السيرة النبوية : لأبى محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق: صدقي العطار وسعيد اللحام، طبعة دار الفكر، بيوت٢٠٠١م/١٤٢١هـ، ١/٢٠٥،٢٠٦.

معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله – ﷺ – يزيدون ويكثرون، فقالوا: يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام عتبه حتى جلس إلى رسول الله – ﷺ – فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من المنزل في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها، فقال له رسول الله – ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه – أو كما قال له – حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال : فاستمع منى، قال: أفعل، فقال: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى أن بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ – ١٣] فقام مذعوراً فوضع يده على فم الرسول – ﷺ – يقول: أنشدكَ اللهَ والرحمَ يا محمد، وذلك مخافة أن يقع النذير، وقام إلى القوم)[1].

(١) تفسير القرطبي ٢٤٦،٢٤٥/٨، وتفسير ابن كثير ٩١/٤، من رواية ابن إسحاق ولم يعقب عليها.

صورةٌ ثالثة من محاولات الكافرين في المساومة:

رواها ابن جرير الطبري وغيره عن سعيد بن مينا مؤلى البحتري ، قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف، رسول الله – ﷺ – فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك، كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك، فأنزل الله تعالى: (قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) حتى انقضت السورة[١].

هذا فضلاً عن عَرْض أصحاب ثقيفٍ الذي تقدم ذِكْرُه، يطلبون أن تكون لهم صلاة خاصة لا ينحنون فيها... وطلبُ الكبراء أن يجعل لهم يوماً خاصاً بحيث لا يجتمعون بالفقراء عند رسول الله – ﷺ – وغير ذلك من المحاولات، وكلها تعطى الدعاة إلى الله خبرة وبصيرة بوسائل الكافرين في فَتْنِ المؤمنين، حتى لا يقعوا في طاعة المكذبين، الذين يودون أن يدهنوا فيدهنون.

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن١٥/٣٧٤، وأسباب النزول: للواحدي، ص/٢٥٨.

المبحث الخامس

تمني الكافرين غفلة المؤمنين عن أسلحتهم وأمتعتهم للقضاء عليهم

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [سورة النساء : الآية/١٠٢].

سبب نزول الآية:

روى الإمام أحمد – وغيره – عن أبى عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله – ﷺ – بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهو بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله – ﷺ – الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتى عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل – عليه السلام – بهذه الآيات بين الظهر والعصر (وإذا كنت فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ..) قال: فحضرت فأمرهم رسول الله – ﷺ – فأخذوا السلاح، قال: فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي – ﷺ – بالصف الذى يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون

فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، قال: ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي – ﷺ – والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلس الآخرون فسجدوا فسلم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مرتين، مرة بعسفان، ومرة بأرض بنى سليم)(١).

وهكذا يوضح سبب النزول الظروف المحيطة بنزول الآية، ويشير إلى أن المسلمين كانوا على أُهبة الاستعداد للقاء المشركين(٢)، ومع ذلك عندما حضرت الصلاة – صلاة الظهر – قاموا لها، فهي سلاحهم الروحي الذي يصلهم بربهم – عز وجل – كل هذا والمشركون يرقبون الأمر، لعلهم يصيبون فرصة مناسبة لذلك، لكن الله ثبطهم حتى فرغ المسلمون من الصلاة، فقال المشركون بعضهم لبعض : لو أصبنا غِرَّتهم، أي هلاَّ أصبنا غفلتهم، ثم قالوا أيضاً: لا تزال الفرصة سانحة، فإنه ستأتي عليهم صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، وقالوا هذا لما سمعوه من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – في فضل صلاة العصر، وأنها الصلاة الوسطى ونحو ذلك، فجعلت تحدوهم الأماني من أجل أن يُصيبوا من المسلمين غفلة عن سلاحهم عندما ينشغلون

(١) صحيح : رواه أحمد في المسند ١٣ / ٧٤ ، ٧٥ برقم (١٦٥٣٣) من حديث أبى عياش الزرقى ، وقال الشيخ حمزة الزين: (إسناده صحيح وهو عند مسلم وغيره) ، ورواه الواحدي في أسباب النزول ، ص / ٩٩ ، ١٠٠ ، ورواه الطبراني في الكبير ، ٥١٣٢/٥ ، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ، ٢٥١/٤ وقال : (هذا إسناد صحيح وله شواهد كثيرة) .

(٢) وكان هذا في غزوة الحديبية سنة ست من الهجرة .

بالصّلاة، فيميلون عليهم ميْلة واحدة، لاستئصال شأفتهم، والتخلص منهم، فجاء جبريل عليه السلام بوحي الله العزيز الحكيم، يُحذّر المؤمنين ويكشف لهم عما يمتلئ به باطنهم من الغل والحقد، فلا يفوِّتُون فرصة للتنكيل بكم متى قدروا على ذلك.

وقد فهم بعض الفقهاء من الأمر القرآني (وليأخذوا أسلحتهم) أن الأمر للوجوب، وهو قول أهل الظاهر وأحد قولي الشافعي، بحيث يكون المقاتلون على أهبة واستعداد، متى احتاجوا إلى السلاح لبسوه بلا كلفة، واختلف المفسرون في الخطاب بأخذ الأسلحة هل يعود إلى الطائفة التي في الصلاة أو إلى الطائفة التي في الحراسة، فعن ابن عباس: أن الأمر بأخذ السلاح أي حمله هو للطائفة الأخرى لقيامها بالحراسة، وقيل: بل هو للطائفة التي تصلى؛ لأنّ الطائفة القائمة بإزاء العدو لابد أن تكون قائمة بأسلحتها وإنما يحتاج إلى الأمر بذلك من كان في الصلاة لأنه يظن أن ذلك ممنوع منه في حال الصلاة، فأمره الله بأن يكون آخذاً لسلاحه أي غير واضعٍ له، وجوّز الزجَّاج والنحَّاس أن يكون الخطاب للطائفتين جميعاً، أي وليكن المؤمنون حين انقسامهم إلى طائفتين – واحدة تصلى وواحدةٌ تُراقِب وتَحْرس– حاملين للسلاح لا يتركه منهم أحد، والقول الأخير هو الأقرب للصواب وليس هناك ما يمنعه[1].

وبعد أن أمرهم بأخذ السلاح والاستعداد بيَّن لهم العلة التي من أجلها

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢٥٧/٤ ، وتفسير المنار ، ٣٧٢/٥ ، ٣٧٣ ، ومفاتيح الغيب ٢٧/٦ والكشاف ٥٥٩/١ ، وزاد المسير في علم التفسير ، ص/٣٢٠ ، والجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ٢٥٤/٣ ، ٢٥٥ ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣٠٨/٤.

كان الأمر بالاستعداد، فقال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ .

قال العلاّمة صديق حسن خان: (هذه الجملة متضمنة للعلة التي لأجلها أمرهم الله بالحذر وأخذ السلاح، أي ودوا غفلتكم عن أخذ السلاح وعن الحذر إذا قمتم إلى الصلاة، ليصِلوُا إلى مقصودهم، وينالوا فرصتهم، فيشدون عليكم شدة واحدة، ويحملون عليكم حملة واحدة)[1].

وقال الإمام الطبري – رحمه الله: (قوله تعالى: ود الذين كفروا .. يعنى: تمنى الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتسهون عنها، فيحملون عليكم– وأنت مشاغيل بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم– حملة واحدة، فيصيبون منكم غِرَّة بذلك فيقتلونكم ويستبيحون عسكركم، يقول جل ثناؤه: فلا تفعلوا ذلك بعد هذا فتنشغلوا جميعكم بصلاتكم فتُمَكِّنوا العدو من أنفسكم وأسلحتكم وأمتعتكم، ولكن أقيموا الصلاة على ما بينتُ لكم، وخذوا من عدوكم حذركم وأسلحتكم)[2].

أهمية الأخذ بالأسباب:

وإنها لدعوة إلهية للمؤمنين أن يأخذوا بالأسباب في كل شئونهم، فالله الذي يُحذِر المؤمنين من عدوهم، ويأمرهم بأخذ السلاح والاستعداد، ويكشف لهم باطن الكافرين، قادر على أن يرد كيد الكافرين في نحورهم دون أدنى جهد

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٥٧/٢ وانظر : محاسن التأويل : للقاسمي ٣١٧/٣ والجامع لأحكام القرآن ٢٥٥/٣ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٣١٨/٤ ، ٣١٩ – بتصرف يسير .

من المؤمنين، ولكن يربى عباده على العمل والأخذ بالأسباب، لينالوا شرف الطاعة والامتثال لأمر الله عز وجل.

وهذا درس عظيم من دروس الإيمان، وما أكثرها في القرآن الكريم، فمريم وهى في حال المخاض تُعلَّم هذا الدرس، ويقال لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾[مريم: ٢٥].

وما عساها أن تفعل هزتها للنخلة وهى في تلك الحالة؟!

وذو القرنين ذلك الملك الصالح عندما طلب منه القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً يقيهم شرهم وفسادهم، وعرضوا عليه أموالهم، قال لهم: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴾ [الكهف: ٩٥]

فلتأخذ الأمة بأسباب النصر والعزة، ينصرها الله ويُعزها، فلا يشك مؤمن في تلك القاعدة: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦]

﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] فالله تعالى هو مصدر النصر والفتح ، ولكن دون أن نبحث عن سنن النصر ومعادلته فسنقبع في بيوتنا في انتظار النصر، وسيطول بنا الانتظار لأننا لم نفهم سنة النصر على الوجه الصحيح، فلكي يأتي النصر فلابد من جهد يبذله المؤمنون ، ليحققوا به طرف المعادلة ، إلى أن يصلوا إلى الدرجة التي تستدعى الطرف الآخر، وطرف المعادلة المطلوب تحقيقه من الناس قد بينه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]

وقال أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد : ٧] فهذه كلها أسباب وشروط للنصر، فمن استكملها أصبح مؤهلاً لنصر الله – تعالى– الذي لا توجد قوة في الأرض مهما كانت تقدر على أن تقف أمامه أو تحول دونه [١].

قال الغزالي – رحمه الله: (اعلم أن الأخذ بالأسباب الدافعة للضرر لا ينافى التوكل على الله، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب فلا ينقص التوكل بإغلاق البيت عند الخروج، ولا بأن يُعقل البعير، لأن هذه الأسباب عَرَفْتَ سنة الله – تعالى – ولذلك قال النبي – ﷺ – للأعرابي لما أهمل البعير وقال: توكلت على الله (اعقلها وتوكل)[٢]، وقال تعالى في كيفية صلاة الخوف: (وليأخذوا أسلحتهم) وقال لموسى– عليه السلام: ﴿ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الدخان: ٢٣] والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب،

---

(١) انظر: الإيمان أولاً فكيف نبدأ به : د. مجدي الهلالي ، طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية – القاهرة الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م ، ص/١٥٤ ، ١٥٥ ، وانظر : الدين والدولة في توجيه القرآن الكريم : د/محمد البهي ، طبعة مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ ، ص/٣٤٦.

(٢) حسن: رواه الترمذي في سننه : كتاب صفة القيامة ، باب بدون ترجمة ، ص/٧٢٥ برقم (٢٥٢٥) وقال : (هذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه) ، وقال الحافظ العراقي في المغنى عن حمل الأسفار ٢٩٦/٤ : (أخرجه الترمذي من حديث أنس .. ورواه ابن خزيمة في التوكل والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢٤٢/١ برقم (١٠٦٨) .

واختفاء رسول الله – ﷺ – في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعاً للضرر .. فإن قلت: فإذا أخذ المتوكل سلاحه حذراً من العدو، وأغلق بابه حذراً من اللص، وعقل بعيره حذراً من أن ينطلق، فبأي اعتبار يكون متوكلاً ؟

فأقول: يكون متوكلاً بالعلم والحال، فأما العلم: فهو أن يعلم أن اللص إنّ اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه، فكم من باب يُغلق ولا ينفع، وكم من بعير يُعقَل ويموت أو يُفلِت، وكم من آخذٍ سلاحه يُقتَل أو يُغلَب، فلا تتكل على هذه الأسباب، بل على مسبب الأسباب .. وأما الحال: فهو أن يكون راضياً بما يقضى الله في بيته ونفسه، ويقول: اللهم إن سَلطتَ على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راضٍ بحكمك، .. وما أغلقتُ الباب تحصناً من قضائك، ولا تسخطاً له، بل جرْياً على مقتضى سُنَّتك في ترتيب الأسباب، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب، فإذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه عِلْمه لم يخرج عن حدود التوكل بعَقْل البعير وأخْذِ السلاح وإغلاق الباب)[1].

حَثُّ الإسلام على استجماع عناصر القوة:

رأينا كيف دار جُلّ حديث المفسرين – رحمهم الله – في الآية التي معنا عن الأمر بأخذ السلاح والحذر في صلاة الخوف، باعتبار وروده في السياق الذي فصَّل كيفيتها، إلا أن النص القرآني أعمق وأعم من ذلك.

---

(١) إحياء علوم الدين : لأبى حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، طبعة دار الفكر، بيروت ، ودار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ٢٩٦/٤ ، ١٩٧- بتصرف واختصار.

فهو توجيه للمسلمين بأن يُعِدُّوا السلاح ويجهزوه، ويصنعوه، ويتدربوا عليه، فإن في هذا تقوية لجانبهم وإعزازًا لكرامتهم، ومن هنا لم يقف النبي – ﷺ بالنص القرآني عند حدود كشفه لباطن الكافرين في تمنيهم غفلة المسلمين عن أسلحتهم وأمتعتهم، بل جعل يُحفّز الشباب إلى عناصر القوة الجسمية والروحية، فقال – كما روى عنه أبو هريرة:(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)(١).

قال القرطبي:(أي القويُّ البدن والنفْسِ، الماضي العزيمة، الذي يصلح للقيام بوظائف العبادات من الصوم والحج والجهاد .. والصبر على ما يصيبه في ذلك، وغير ذلك مما يقوم به الدين وتنهض به كلمة المسلمين فهذا هو الأفضل والأكمل)(٢).

(وتأسيساً على هذه القاعدة حَبَّب إلى النفوس روح الرياضة الهادفة ، من ممارسة الرمي والمناضلة، فالله سبحانه يقول في الترغيب في الاستعداد: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ..) ويؤكد الرسول – ﷺ – هذا المفهوم فيقول: (ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي)(٣).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ... ، ص /١١٥٢ برقم (٢٦٦٤) ورواه أحمد في المسند ٤٢٠/٨ برقم (٨٧٧٧) من حديث أبي هريرة، وقال الشيخ شاكر: (إسناده صحيح رواه مسلم والحديث شامل لكل أنواع القوة).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم : لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي ، تحقيق: هاني الحاج طبعة المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، الطبعة الأولى، ٥٥٤/٦ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه : كتاب الإمارة ، باب فضل الرمي والحث عليه ، ص / ٨٥٤ برقم (١٩١٧) ورواه أحمد في المسند ٣٧١/١٣ برقم (١٧٣٦٣) من حديث عقبة بن عامر ، وقال حمزة الزين: (إسناده صحيح) ، ورواه كذلك ابن ماجه وأبو داود في الجهاد .

وإذا كان الرّمي يُفسَّر قديماً بالرمي عن القوس وبالنبل والسهم والرمي بالحراب فإنه الآن يفسر بالرمي عن قوس البندقية والمدفع والصاروخ .. حتى لنلمح من أحاديث الرسول – ﷺ – المتوافرة التشديد على تعليم الفنون الحربية ولا سيما الرمي، فيقول: (من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا)[١]، وكل ما دون ذلك يجعله الرسول – ﷺ – من قبيل اللهو الباطل، فيقول: (كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمية بقوس، وتأديبه لفرسه، وملاعبته أهله فإنه من الحق)[٢]، وقد عقّب القرطبي على هذا بقوله: (أي أن كل ما يتلهَّى به الرجل لا يفيده في العاجل ولا في الآجل فائدة، فهو باطل والإعراض عنه أوْلى، وهذه الأمور الثلاثة فإنه وإن كان يفعلها على أنه يتلهَّى بها وينشط ، فإنها حق لاتصالها بما يفيد، وتُنَمِّي فيه روح القوة وروح الخير، فإن في الرمي بالقوس وتأديب الفرس مبادئ لتعلُّم فنون القتال، وفى ملاعبة الأهل إعفاف للزوجة، ولقاء قد يكون ثمرته ولد يعبد الله ويوحِّده، فمن هنا كانت هذه الثلاثة من الحق)[٣].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه : كتاب الإمارة ، باب فضل الرمي والحث عليه ، ص/٨٥٥ برقم (١٩١٩) ، وابن ماجه في سنه : كتاب الجهاد ، باب الرمي في سبيل الله ، ص /٦٥٣ برقم (٢٨١٤) .

(٢) حسن : رواه ابن ماجه في سننه: كتاب الجهاد ، باب الرمي في سبيل الله ، ص/٦٥٢، برقم (٢٨١١) ورواه الترمذي في سننه : كتاب فضائل الجهاد ، باب ما جاء في فضل الرمي، ص/٣٨٥ برقم (١٦٣٧) وقال بعد أن رواه من طريق آخر (هذا حديث حسن) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ٣١٤/٤، ٣١٥ ، وانظر : الإسلام والعلاقات الدولية: د/ محمد الصادق العفيفي ، طبعة دار الرائد العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ /١٩٨٦ م ، ص /١٨٦ .

وقال صاحب المُفِهم: (القوة: التقوِّي بما يحتاج إليه من الدروع، والمجان والسيوف والرماح، والرمي، وسائر آلات الحرب، إلا أنه لما كان الرمي أنكاها في العدد وأنفعها فسرها وخصصها بالذكر، وأكدها ثلاثاً، ولم يُرِد أنها كل العدة، بل أنفعه.

ووجه أنفعيتها: أن النكاية بالسهام تبلغ العدو من الشجاع وغيره، بخلاف السيف والرمح فإنه لا تحصل النكاية بهما إلا من الشجعان الممارسين للكر والفرِّ، وليس كل أحدٍ كذلك .. وذمُّ من ترك الرمي بعد أن علمه سببُه أن هذا الذى تعلم الرمي حصلت له أهلية الدفاع عن دين الله والغَنَاء فيه، والنكاية في العدو، فقد تعين لأن يقوم بوظيفة الجهاد، فإذا ترك ذلك حتى يعجز عنه فقد فرَّط في القيام بما تعيَّن عليه، فذُمَّ على ذلك)[1].

المبحث السادس
تمنيِّ الكافرينَ الكُفرَ للمؤمنين

قال تعالى في كشف تلك الأمنية من أماني الكافرين للمسلمين وهي أعظم أمانيهم:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم : للقرطبي ٣/٦٠١ ، ٦٠٢ .

مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة البقرة ، ١٠٩،١١٠]

وقال تعالى – أيضاً: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [سورة النساء ، الآية /٨٩].

وقال: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [سورة الممتحنة ، الآية /٢].

وقال – أيضاً: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية /٢١٧].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [سورة البقرة ، الآية /١٢٠].

في هذا المبحث نقف عند أمنيةِ الأماني التي يتمناها الكافرون للمؤمنين وهى أن يعود المؤمنون كفاراً ويرجعوا عن دينهم.

الحسد من أسباب تمني الكافرين الكفر للمؤمنين:

وفي آية سورة البقرة: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق..) يُبين الحق تعالى عِلَّة تمنيهم هذه الأمنية وهى الحسد على ما أوتي المؤمنون من نعمة الإيمان والهداية .

(ومعنى الآية: أن أكثر أهل الكتاب تمنوْا أن يعود المؤمنون من بعد إيمانهم كفاراً ، وأسند هذا التمني الذميم إلى الكثرة منهم إنصافاً للقلة المؤمنة التي لن ترضى أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام)[١].

وفي سبب نزول الآية تحديد لأشخاص بأعيانهم كحييّ بن أخطب وكعب ابن الأشرف .. وغيرهم، وأن هذا كان بعد غزوة أحد، قالوا: للمسلمين: ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هُزِمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم ... [٢].

وقال الإمام الطبري بعد أن روى هذه الروايات :(وليس لقول القائل عَنَى بقوله: (كثير من أهل الكتاب) كعب بن الأشرف معنىً مفهوم، لأن كعب بن الأشرف واحدٌ ، وقد أخبر الله جل ثناؤه أن كثيرًا منهم يودون لو يردون المؤمنين كفاراً بعد إيمانهم، والواحد لا يقال له كثير بمعنى الكثرة في العدد، إلا أن يكون قائل ذلك أراد بوجه الكثرة في العز ورِفْعة المنزلة في قومه وعشيرته، فإن أراد ذلك فقد أخطأ لأن الله جل ثناؤه قد وصفهم بصفة الجماعة ..)[٣].

وخلاصة كلام الطبري أن الآية عامة في أكثر أهل الكتاب من اليهود والنصارى أيضاً، وأنها لا ترتبط فقط بكلامهم والذى وجَّهوه للمسلمين بعد أُحدٍ، وإنما هذه أمنيتهم للمؤمنين على كل حال وفى كل زمان ومكان !

وفي التعبير بقوله: (حسداً من عند أنفسهم..)بيان لعلة هذا الود، أي أن هذا التمني بلغ مبلغاً متناهياً، وأنه لم يكن له من سببٍ أو عِلّةٍ إلا الحسد الذى

(١) التفسير الوسيط: طنطاوي ٢٤٤/١ بتصرف.

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٦٢٣/١.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٦٢٤/١.

استولى على نفوسهم ، واستحوذ على قلوبهم، فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان، ويتمنون لهم التحول عنه إلى الكفر، وأن أهل الكتاب لم يُأمرُوا بذلك في كتابهم بل كتابهم ينهاهم عن هذا الخُلق الذميم، ويؤمرهم بالدخول في الإيمان مع هذا النبي الذى يعرفون صفته ونعته كمعرفتهم بأبنائهم.

ولهذا قال تعالى: (من بعد ما تبين لهم الحق) أي من بعد ما تبين لهؤلاء من أهل الكتاب الذين يريدون أن يردوكم كفاراً من بعد إيمانكم الحق في أمر محمد – والنعوت المذكورة في التوراة والإنجيل. لأن مَنْ شاهد هاتيك المعجزات الباهرة والآيات الزاهرة ، يَبْعُد منه . كيفما كان . عدم تبين الحق، ومعرفة مطالع الصدق، إلا أن الحظوظ النفسانية، والشهوات الدنيَّة، والتسويلات الشيطانية حَجبتْ من حَجبتْ عن الإيمان وقيَّدت من قيَّدت في قيْد الخِذْلان، فكفروا به حسداً أو بغياً إذ كان من غيرهم، فعيَّرهم الله ولامهم ووبخهم أشد الملامة[1]، وذلك في قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]

روى الطبري عن السُّدي قال: (بغياً: بغوْا على محمدٍ وحسدوه وقالوا: إنما كانت الرسل من بني إسرائيل فما بال هذا من بني إسماعيل !! فحسدوه أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده)[2]. فباءوا بغضبين، غضب بسبب كفرهم بالإنجيل وبعيسى وتحريفهم التوراة، وغضب بسبب كفرهم بالقرآن

(١) انظر: روح المعاني ٥٦٢/١، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن٦٢٦/١ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥٣٣/١.

وبمحمد – ﷺ – قاله: ابن عباس وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو العالية[١].

والحجج التي قامت على أهل الكتاب وبها تبيَّن لهم الحق كثيرة جداً، منها:

صفات ونعوت هذا النبي – ﷺ – وأمته، التي عندهم في التوراة والإنجيل كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومنها استفتاحهم به على المشركين من عُبَّاد الأوثان قبل خروجه ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩]

أي: يستنصرون به على مشركي العرب، ويقولون: إن نبياً الآن مبْعَثه قد أظلَّ زمانه، يقتلكم قتل عادٍ وإرم، فلما بعثه الله من العرب كفر به أهل الكتاب[٢].

ومنها اختبارهم له في مواطن عديدةٍ للتحقق من صدقه وأن ما جاء به الحق، وقد تحققوا، حتى قال الله تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

---

(١) المصدر السابق نفسه ١/٥٣٥ ، ٥٣٦ .

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١/٥٢٧ ، والتفسير الوسيط : طنطاوي ١/١٩٨ .

بل قال عبد الله بن سلام :ومعرفتي بمحمد أشد .

وغير ذلك من الآيات والمعجزات ، ومع ذلك كفروا من بعد ما تبين لهم الحق، ولم يكتفوا بكفرهم، بل تمنوا لحسد قلوبهم أن يُردَّ المؤمنون من بعد إيمانهم كفاراً.

غاية الكافرين من تمنيهم الكفر للمؤمنين:

وفى سورة النساء يبيِّن الله – تعالى – وهو يكرر على المؤمنين كشف هذه الأمنية من أماني الكافرين لهم، أن الكافرين يودون لهم الكفر ليحصل التساوي بينهم، فلا يعيِّروهم بالكفر، ولا يبقى سبيل ليدَّعوا أن لهم عليهم فضلاً.

قال تعالى: (ودُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً..) (.. فالكفر لا يستريح لوجود الإيمان في الأرض ووجود المؤمنين، ولابدَّ له من سعي وعمل، لابد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر ليكونوا كلهم سواء)[1] .

قال الحافظ ابن كثير: (أي هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبُغضهم لكم ....)[2].

ولقد ذكر الله – تعالى – في أخبار الكافرين السابقين من أقوام الرسل ما يدل على تشابه قلوب الكافرين في كل زمان، وأنهم يخشون أن يتفضل عليهم أهل الإيمان، ويظهرَ فضلهم، ويتخذون من ذلك ذريعة للصد عن الإيمان، فها هم الملأ من قوم نوح، قال الله عنهم: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب ٧٣١/٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم١٨٩/٤ ، وانظر: زاد المسير في علم التفسير ص /٣٠٩ .

[المؤمنون: ٢٤]. وقالوا له في موضع آخر: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧]

وخلاصة الأمر أن الكافرين يقولون للمؤمنين: لستم بأفضل منا فننقاد لكم، ويصرِّحون لهم في موضع آخر بأن الذي بأيديهم لو كان حقاً أو فيه خيرٌ ما سبقهم إليه المؤمنون، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١] وقد قال الكافرون هذا القول للمؤمنين على أثر دعوة وُجَّهت إليهم للإيمان في الآية التي قبلها: قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠]

ومن هنا تظهر غاية الكافرين من تمنيهم الكفر للمؤمنين، وهى أن يتساووا في الكفر، فيذهب فضل المؤمنين عليهم.

ولما كانت هذه الأمنية صعبة التحقق، وهى أن يكفر المؤمنون بعد إيمانهم، ومن ثم لن يحصل التساوي بينهم، وسيبقى فضل أهل الإيمان والهداية مبعثاً لكُرْه الكافرين لهم ، وسيحملهم هذا على العمل على احتقار المؤمنين والاستكبار عليهم ، والنيْل منهم بكل سبيل، وتصغير شأنهم، وهذا شأن أهل النقص عندما يريدون أن يُخْفُوا نقائصهم لا يبحثون نحو الكمال ولا يسعون إليه، بل يعملون على إظهار معايب أقرانهم من أهل الكمال لينشغل بها الناس عن نقائصهم !!

والذي يثير الدهشة والعجب هو أنه بقدر حرص الكفار على كفر المؤمنين تجد حرص المؤمنين على إيمان الكفار، ودخولهم في طريق الهداية وسلوكهم سبيلها، ويظهر هذا الحرص من المؤمنين في قوله تعالى ميئساً لهم من إيمان الكافرين قال تعالى: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٨٨] فإنّه لعجيب أن نحب لهم الإيمان ويحبون لنا الكفر !!

قتال الكافرين لرد المؤمنين إلى الكفر:

والكافرون في سبيل تحقيق هذه الأمنية – وهي رد المؤمنين إلى الكفر – يسلكون كل سبيل، ويستخدمون كل وسيلة لتحقيق هذه الغاية، ولو لزم الأمر إلى القتال قاتلوهم، فقد قال الحق تعالى بهذا الشأن: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧] (أي ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون، ويُضمرون لكم السوء ، ويداومون على إيذائكم لكي يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر، إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه، والتعبير بقوله: (ولا يزالون) المفيد للدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع، وأنهم لن يكفُّوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم، وحتى للتعليل، أي أن يردوكم عن دينكم، والرد: الصرف عن الشيء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك ، فغاية المشركين أن يردوا المسلمين بعد إيمانهم كافرين، وقوله: (إن استطاعوا) يدل على استبعاد استطاعتهم رد المسلمين عن دينهم ، وذلك كقول الرجل لعدوه : إن ظفرت بي

فلا تبق عليّ ، وهو واثقٌ أنه لن يظفر به، ويشهد لذلك التعبير بأنْ المفيدة للشك، وفائدة التقييد بالشرط (إن) التنبيه على سخافة عقول المشركين، وكون دوام عداوتهم للمؤمنين لن تؤدى إلى النتيجة التي يتمنونها وهى رد المسلمين عن دينهم ، لأن لهذا الدين رباً يحميه، وأتباعه يفضلون الموت على الرجوع عنه)[١].

ثم قال الله تعالى في موضع آخر – يصور للمسلمين إصرار الكافرين على ردهم إلى الكفر واستعمال كل وسيلة في ذلك – قال تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة: ٢]

وقد جاءت هذه الآية بعد نهى الله – عز وجل – المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء، وبعد شرح وبيان ما تقع به الموالاة لهم، من الإلقاء بالمودة، وبعد ذِكْر ما صنع الكفار بهم أولاً من إخراج الرسول والمؤمنين معه، فذكر لهم في هذه الآية صنيعاً آخرلو قدروا عليه، من أنه إن تمكنوا من المؤمنين أظهروا لهم العداوة ،وبسطوا إليهم أيديهم بالقتل والتعذيب و ألسنتهم بالسب والتحقير والتضليل، وهم يتمنون من كل هذا لو ارتددتم عن دينكم الذى هو أحب الأشياء إليكم، وهو سبب إخراجهم إياكم، ووددتهم الكفر للمؤمنين ليست مترتبة على الظفر بهم والتسلط عليهم، بل هم وادون كفرهم على كل حال، سواء ظفروا بهم أم لم يظفروا[٢].

---

(١) التفسير الوسيط : طنطاوي ٤٧٤/١ ، ٤٧٥ ، وانظر : الكشاف : للزمخشري ٣٥٧/١ وفتح القدير : للشوكاني ٣٠١/١ .

(٢) انظر البحر المحيط :لأبى حيان ١٥٤,١٥٣/١٠،والجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ٤/١٨.

الكافرون لا يرضَوْن عن المؤمنين حتى يدخلوا في دينهم:

وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

قال الطبري: (يعنى .. وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبِل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيِّم، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم ، لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع اليهودية والنصرانية في شخص واحد في حالٍ واحدة ، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك ، إلا أن تكون يهودياً نصرانياً، وذلك مما لا يكون منك أبداً ، لأنك شخص واحد ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة ..)[1] .

ويظهر من كلام المفسرين استمرار القرآن في كشف هذه الأمنية الخبيثة من أماني الكافرين للمؤمنين، ولكن الجديد في هذا السياق هو تنبيه من قد يتوهم في وقت من الأوقات أن أهل الكفر يمكن أن يرضوا عن المؤمنين أو يرضوا دينهم، فالقوم لا ينقصهم البرهان، وليس ينقصهم الاقتناع بأن المؤمنين على الحق، ولو تودد إليهم المؤمنون مهما توددوا فإنه لا يرضيهم إلا أن يدخلوا في ملتهم، ويتركوا ما معهم من الحق، إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ٦٥٩/١ .

زمان ومكان، إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها التي يشنها اليهود والنصارى وحلفاؤهم في كل أرض وفى كل وقت ضد المسلمين، ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للإسلام يلونانها بألوان شتى، في خبث ومكر وتورية، إنهم قد جرَّبوا حماسة المؤمنين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة، ومن ثمّ استدار الأعداء العريقون فغيَّروا أعلام المعركة .. لم يعلنوها حرباً باسم العقيدة– على حقيقتها – خوفاً من حماسة العقيدة وجيشانها .. إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد والسياسة، والمراكز العسكرية وما إليها، وألقوا في روع المخدوعين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها، ولا يجوز رفع رايتها وخوض المعركة باسمها، فهذه سمة المتخلفين المتعصبين .. بينما هم في قرارة نفوسهم: الصهيونية العالمية والصليبية العالمية، بإضافة الشيوعية العالمية، جميعاً يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء، لتحطيم هذه الصخرة العاتية، التي نطحوها طويلاً فأدمتهم جميعاً .. إنهم يزيفونها علينا لغرض دفين في نفوسهم، ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خُدعنا بخديعتهم، فلا نلومن إلا أنفسنا ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه – ﷺ – ولأمته بقوله تعالى:(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)[١] والنفي بلن حكمته المبالغة في التيأييس لأنها لنفى المستقبل وتأبيده[٢].

ورغم هذا الحرص الذى نراه منهم على تحويل المسلمين إلى اليهودية أو

(١) في ظلال القرآن ١٠٨/١ بتصرف وإيجاز .

(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٦٩١/١ .

النصرانية، فإن عُتاة المنصرين يعلنون عند فشلهم في هذا الأمر أن غرضهم هو إخراج المسلم من دينه فقط، يقول صمويل زويمر – الذى يعتبره العَالم شيخ المنصرين: (إننا لا نريد إدخال المسلم في النصرانية ، لأن ذلك تكريم له ، وهو لا يستحق هذا التكريم، وإنما نريد إخراجه من دينه، نريد ألا نجعله مسلماً كآبائه وأجداده ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها)[1].

وعلى هذا فالمسلم المفرط في دينه، الغير مستمسك بشرائعه، المنغمس فيما ينغمسون فيه من اللهو والفواحش، يُحلَّون عليه رضوانهم !!

توجيه الله تعالى المؤمنين للثبات على الدين أمام محاولات الكافرين:

لما كانت هذه غاية الكافرين من كل أمانيهم للمؤمنين ، وهى أن يردوهم بعد إيمانهم كافرين، جاءت توجيهات الله عز وجل للمؤمنين أن يثبتوا على دينهم، وألا يستجيبوا لهؤلاء الحاسدين.

قال الله تعالى للمؤمنين بعد أن أخبرهم بتمني الكافرين من أهل الكتاب أن يردوهم من بعد إيمانهم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، قال لهم: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ١١٠] ، وهذا توجيه واضح: أي لا تلفتوا إلى محاولا الكافرين واستمِروا في الثبات على الدين، وأقيموا أركانه بأداء الصّلاة

(١) قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله: جلال العالم، طبعة دار السلام، القاهرة، الطبعة التاسعة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ص/٧١، ٧٢، وجذور البلاء: عبد الله التل، ص/٢٧٥.

والزكاة، وفِعل عموم الخير، فإنه لا يضيع عند الله أجره وثوابه[١] .(وهكذا يوقظ السياق القرآني وَعْى المسلمين، ويركزه على مصدر الخطر، ومكْمَن الدسيسة، ويُعَبّئ مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم، ثم يأخذهم بهذه الطاقة المشحونة كلها إلى جناب الله تعالى ينتظرون أمره، ويمضون في طريقه التي اختارها لهم، ويعبدونه ويدخرون حسناتهم عنده)[٢].

وبعد أن قال لهم عن الكافرين : (ودوا لو تكفرون كما كفروا) قال لهم: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [النساء: ٨٩]

أي: فإذا كان هذا حالهم من ودادة كفركم فلا تتخذوهم أولياء توالونهم وتنصروهم وتستنصرون بهم، ثم يؤنسهم بقوله: (وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً) وفى هذا إشعار ببقاء قوتهم برغم محاولات وأمنيات الكافرين.

وقال الله تعالى – أيضاً – للمؤمنين بعد أن أخبرهم بإصرار الكافرين على قتالهم حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧]

قال الشوكاني: (وفيه تهديد للمسلمين ليثبتوا على دين الإسلام، لأنهم إنّ اغتروا بالكافرين فأجابوهم لما أراد من الكفر وارتدوا عن الإيمان، وماتوا على الكفر، بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة، فلا يبقى للمرتد منهم حظ من

---

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير ٦٧٢/١ ، التفسير الوسيط : طنطاوي ٢٤٦/١ .

(٢) في ظلال القرآن ١٠٣/١ بتصرف .

حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة الذي يوجبه الإسلام ويستحقه أهله ..) [1].

(وهذا التحذير من الله قائم إلى آخر الزمان، فليس لمسلم عذر في أن يخنع للعذاب والفتنة فيترك دينه، ويرتد عن إيمانه وإسلامه، ويرجع عن الحق الذى ذاقه وعرفه، فإن القلب الذى يذوق الإسلام ويعرفه لا يمكن أن يرتد عنه ارتداداً حقيقياً أبداً، إلا إذا فساداً الاصلاح له ..) [2].

وبعد آية الممتحنة (وودوا لو تكفرون)، قال لهم: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الممتحنة: ٣] أي إن دخلتم في موالاتهم أو كفرتم كما تمنوا ، فلن ينفعوكم ، ولن يُغنوا عنكم من الله شيئاً.

وكذلك قال لهم موجهاً الخطاب إلى نبيهم – ﷺ: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

قال الطاهر بن عاشور: (هذا تحذير لكل من تلقى الإسلام أن لا يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى، .. وأكد ذلك التحذير بعشرة مؤكدات، وهى القسم المدلول عليه باللام الموطئة للقسم، وتأكيد جملة الجزاء بإن وبلام الابتداء في خبرها، واسمية جملة الجزاء ..) [3]**، (وإنما آثر خطابه – صلى الله عليه وسلم – بذلك ليدخل دخولاً أوليّاً من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين**

(١) فتح القدير ٣٠١/١ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٢٢٨/١ بتصرف.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٦٩٥/١ ، وانظر : في ظلال القرآن ١٠٨/١.

تمسكاً بولايتهم، وطمعاً في نصرتهم)[1].

ويقول تعالى – أيضاً : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩ – ١٥٠] .

ويقول تعالى أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠ – ١٠٢]

ويبلغ التهديد مداه في قوله تعالى:(ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

فنسأل الله تعالى الثبات على دينه حتى الممات ،و إن أراد بعباده فتنة أن يقبضنا إليه غير مفتونين.

نواقضُ الإيمان وأسباب الردة:

وفى إطار حديث القرآن عن تمنى الكافرين الكفر للمؤمنين، أجد من الضروري بيان أخطر الأسباب التي تنقض الإيمان وتحصل بها الردة، والعياذ بالله.

وقد قال العلماء: إن الكفر يحصل بالقول والعمل والاعتقاد، وقد جعل الشارع للإيمان باباً يُدخَل منه، وهو الإقرار والتصديق بالشهادتين، فمن ولج

(١) التفسير الوسيط: طنطاوي ٢٦٣/١.

إلى الإسلام من هذا الباب، فإنه لا يخرج منه إلا أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يناقض إقراره وتصديقه بالشهادتين، فإن الشطر الأول وهو شهادة (أن لا إله إلا الله) يتضمن توحيد الله – عز وجل– في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وطاعتَه وامتثالَ أمره ونهيْه، والرضى بقدره، وخوفَه وحبَّه، ورجاءَه ورهبَتَه، والشطر الثاني: وهو شهادة (أن محمداً رسول الله) تضمن الإقرارَ والتصديقَ بكل ما جاء به محمدٌ – صلى الله عليه وسلم – من الشرائع، وما أخبرَ به من الغيب، وأنه من عند الله – عز وجل – والاعترافَ له بجميع أخلاقِ وصفاتِ النبوة، وختمهِ للرسالات، فمن أنكر أو جحد شيئاً من ذلك فقد كفر[1] .

وقد لخص العلماء قاعدة عامة في المسألة ، قالوا: (ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه ..)[2].

قال إسحاق بن راهويه: (أجمع المسلمون على أن من سب الله، أو سب رسوله –صلى الله عليه وسلم – أو دفع شيئاً مما أنزله الله –عز وجل– أو قتل نبياً من أنبياء الله، أنه كافر وإن كان مقراً بكل ما أنزل الله)[3].

(١) انظر: الإيمان حقيقته وأركانه ونواقضه: د. محمد نعيم ياسين ، طبعة دار ابن الجوزي، القاهرة ، ص/١٢٨.

(٢) العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن تيمية ، ص/٣٥٧ ، وانظر : التوسط والاقتصاد في بيان أن الكفر يكون بالقول والفعل والاعتقاد: علوي عبد القادر السقاف ، ص/٢٧ .

(٣) الصارم المسلول: لابن تيمية ، ص/٣٥٧، وانظر : التوسط والاقتصاد في بيان أن الكفر يكون بالقول والفعل والاعتقاد : علوي بن عبد القادر السقاف ، ص/٢٧.

وقال سحنون المالكي: (أجمع العلماء أن شاتم النبي –صلى الله عليه وسلم– المنتقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأئمة: القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر) [(١)].

وقال ابن حزم: (الجَحْدُ لشيء مما صح به البرهان أنه لا إيمان إلا بتصديقه كفر، والنطق بشيء من كل ما قام به البرهان أن النطق به كفرٌ كفر، والعمل بشيء مما قام البرهان بأنه كفرٌ، كفر .. عدا من ثبت إكراهُه على الكفر فلا يكفر)[(٢)].

وقال ابن العربي في قوله تعالى: (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ...) لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جداً أو هزلاً، وهو كيفما كان الكفر، فإن الهزل بالكفر كفر، لا خلاف فيه بين الأمة)[(٣)].

وقال القاضي عياض: (نقطع بتكفير كل قائل قولاً يتوصل به إلى تضليل الأمة وتكفير الصحابة.. وكذلك نُكفّر بفعلٍ أجمع المسلمون على أنه لا يصدر إلا من كافر وإن كان صاحبه مصرِّحاً بالإسلام مع فعله، كالسجود للصنم ، أو للشمس أو القمر، أو الصليب، أو النار، والسعي إلى الكنائس والبِيَع مع أهلها، والتزيّي بزيهم مِن شَدّ الزنانير .. فقد أجمع المسلمون أن هذا الفعل لا يُوجد إلا من كافر)[(٤)].

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض اليحصبي ، ٣١٢/٢.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل: لابن حزم ، ٣/ ٢٤٤ ، ٢٤٥ – بتصرف.

(٣) أحكام القرآن: لأبي بكر ابن العربي، ٩٧٦/٢.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٣٩٦/٢ .

وقال الشيخ إبراهيم بن ضويان الحنبلي: (ويحصل الكفر بأحد أمور أربعة: بالقول، كسبِّ الله – تعالى – أو رسوله أو ملائكته ..، وبالفعل، كالسجود للصنم كشمس وقمر وشجر وقبر، لأنه إشراك بالله تعالى، وكإلقاء المصحف في قاذورة .. ، وبالاعتقاد: كاعتقاده الشريك له تعالى: أو الصاحبة أو الولد، لقوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] أو أن الخُبْز حرام ، ونحو ذلك مما أُجْمِع عليه إجماعاً قطعياً، لأن ذلك معاندةً للإسلام وامتناعاً من قبول أحكامه، ومخالفةً للكتاب والسنة وإجماع الأمة، وبالشك في شيء من ذلك أي في تحريم الزنى والخمر أو في حِلِّ الخبز ونحوه)(١).

وقال النووي: (وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئاً مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين، إذا كان علمه منتشراً، كالصلوات الخمس وصوم رمضان، والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر، ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الأحكام، إلا أن يكون حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده، .. فأما ما كان الإجماع فيه معلوماً من طريق علم الخاصة كتحريم نكاح المرأة وعمتها وخالتها وأن القاتل عمداً لا يرث، وأن للجدة السدس، وما أشبه ذلك من الأحكام فإن من أنكرها لا يكفر يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة)(٢).

ويتحصل لدينا من أقوال العلماء – وهى كثيرة جداً غير هذه – أن الأمور التي تحصل بها الردة وينتقض بها الإيمان تتمحور حول أربعة أنواع من النواقض

---

(١) منار السبيل شرح الدليل : إبراهيم بن محمد بن ضويان ، ٣٥٧/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم : للنووي ، ٢٠٥/١.

وهي:

١- إنكار الربوبية أو الطعن فيها .

٢- إنكار الألوهية أو الطعن فيها.

٣- الطعن في أسماء الله وصفاته .

٤- الطعن في الرسالة أو في صاحبها ﷺ.

ويدخل تحت هذه الأنواع صور كثيرة لا يمكن حصرها، من الأفعال والأقوال والاعتقادات، جميعها يعود إلى الشهادتين بالنقض، وتُخْرِج صاحبها من الإسلام، والعياذ بالله تعالى[١].

التهوين من شأن الكفر والتقليل من خطره:

هذا ويسعى الكافرون – ومن فُتن بدعواهم – إلى التهوين من شأن الكفر؛ ليسهل أمره على الناس، ومنهجهم في ذلك هو المبالغة في إظهار تسامح الإسلام – كعقيدة – مع الكافرين في إقرارهم على كفرهم، وإنكارهم على من يقول بأن هناك عقوبة يقضى بها الإسلام على من يرتد عن دينه.

قال البرفسور تيودور خوري في مؤتمر الحوار والتعاون بين المسيحية والإسلام، المنعقد في فيينا سنة (١٩٩٧م): (الإسلام كدين منذ نشأته متسامح جداً، ومنفتح على التعدد والحوار ، فإلى جانب المبدأ المعروف (أنه لا إكراه في الدين ..) نجد في القرآن آيات مثل هذه الآية ، وهناك دلائل

---

(١) الإيمان أركانه وحقيقته محمد نعيم ياسين ، ص/١٢٩ بتصرف، وانظر: رياض الجنة بشرح أصول السنة: أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري، طبعة دار الكيان ، الرياض ، الأولى ١٤٢٦ هـ ، ص ٢٩٨.

تشير إلى أن الإسلام هو في التطبيق العملي– أيضاً – متسامح وميَّال إلى التعددية .. لكن الإسلام لا يرجع فقط إلى القرآن كوثيقة وحى الله، بل أيضاً إلى السنة، وإلى تطبيق نظرات معيَّنة عند العلماء في نِطاق المجتمع، وبهذا تظهر عناصر إضافية يجب إخضاعها لفحصٍ نقديٍّ، فقد اتخذ عمل الفقهاء شكلاً ليس له بالمعنى الحصري أساس في الحق الإلهي، من هذا المنظار حصلت زيادات لاحقة يمكن اليوم الحذف منها ، مثل : فكرة تقسيم العالم إلى دار السِّلم ودار الحرب، أو الحكم على المرتد بالقتل .. هذه كانت زيادات لاحقة، صلتها ضئيلة، أو لا صلة لها بالشريعة الأصيلة للإسلام ..)[(١)].

وتعْجَب عندما تسمع أقوال المخدوعين من المسلمين بتلك الدعاوى، فتراهم أكثر مبالغة من الكافرين في إظهار رضى الإسلام عن الكافرين، وأنه يقبل الكفر ويقره ولا يعادى أهله، وقد كتب غير واحد من هؤلاء الذين جنّدهم الكفار ليشرحوا صدور المؤمنين للكفر، في إنكار عقوبة المرتد عن دين الإسلام، ولكن كان الذي تولى كبره في هذه السنوات الأخيرة، ذلك الذي يسمى بأحمد صبحي منصور !!

فانظر إلى ما كتب عن حدّ الردة ، يهوِّن الكفر على المؤمنين ويدعو إليه، فيرى أن حدّ الردة من مستحدثات العصر العباسي، عندما ساد الكهنوت السياسي والديني – على حدّ قوله – وكتب الفقهاء في استتابة المرتد، وجعلوا السبب الموجب للاتهام بالردة مائعاً غير محدد، يسهل تفسيره حسب الهوى، وهو إنكار المعلوم من الدين بالضرورة، وهو مصطلح متأخر غير محدد، لم

---

(١) عالم واحد للجميع ، ص/١٢٥ .

يعرفه عصر الرسول ولا الخلفاء الراشدين، ولا توجد قائمة متفق عليها بذلك المعلوم من الدين بالضرورة .. ويعنى أن بعض الناس جعل من الدين مملكة خاص به يريد أن يفرض به رأيه وكتبه على الناس، وإن أعرضوا هددهم بمحاكم التفتيش والقتل، وقد امتلأ تاريخ المسلمين في العصرين العباسي والمملوكي بمئات من محاكم التفتيش والتكفير، وانغمست فيها السلطات الحاكمة .. بل إن تلك الخصومات الفكرية بين المسلمين جعلتهم يرون تطبيق حد الردة على الزنديق دون إعطائه فرصة المحاكمة، حتى لا يتمكن من الدفاع عن نفسه وتبيُّن حجته، .. وقد يُتصور أن ذلك الزنديق كافر بالله وكتبه ورسله، كلا، إنه مؤمن بالله وكتبه ورسله، ولكنه مفكر صاحب رأى، إلا أن خطأه الأعظم أن آراءه تخالف آراء الفقهاء، وتخالف ما اعتبروه معلوماً من الدين بالضرورة، لذلك يستحق القتل حتى ولو تاب ..)[١] ثم يقول: (أفيقوا أيها الناس .. فأعظم الظلم أن تقتل النفس التي حرّم الله قتلها ثم ننسب ذلك إلى الله تعالى)[٢].

ثم يمضى الكتاب فيسمى الفقهاء الذين تكلموا عن حد الرَّدة وأحكام المرتد دعاة الكهنوت[٣]، ويزعم أن حديث القرآن عن الردة، هو تحذير فقط، والعقاب في الآخرة، ويُورِد قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٧] ثم يقول(لم

(١) حد الردة دراسة أصولية تاريخية : أحمد صبحي منصور ، طبعة دار طيبة للدراسات والنشر، القاهرة ، ص/٢٩– ٣٢.

(٢) المرجع السابق ، ص/٣٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص/٤٠.

يقل: ومن يرتد منكم عن دينه فجزاؤه القتل وحد الردة، وإنما جعَل العقاب في الآخرة إذا ظل يحيا مرتداً إلى نهاية حياته) [1] **ويقول: (إن الله تعالى حدد سياسة معينة للنبي يتصرف بها مع المنافقين المرتدين، هذه السياسة هي الإعراض عنهم، بقوله تعالى للنبي عنهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾[النساء: ٦٣] فهنا نوعٌ من الإعراض الإيجابي ، الذي يشمل الوعظ والنصح ، دون ضغط أو تخويف ثم تركهم إلى ما يختارون في النهاية)** [2].

ثم يتساءل: هل يصح قتل الناس بأحاديث الآحاد، وهل تهون حياة الناس إلى هذا الحد، ويؤكد أن حدّ الردة قام على حديثين، ثبت كذبهما بمعايير الجرح والتعديل [3].

وبرغم تهافت كلام هؤلاء الداعين لقبول الكفر، إلا أنه يجد له طريقاً إلى قلوب بعض ضعفاء الإيمان من المسلمين في ظل التفنن الإعلامي الخطير، فلا يلبث المرتد أن يُغرِّر بغيره، خصوصاً من الضعفاء والبسطاء، لذلك ينبغي على المجتمع الإسلامي أن ينتبه لهذا الخطر، فليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يسمح بعقيدة أخرى تناوئ العقيدة الإسلامية أو تُزاحمها، كالعقيدة الشيوعية أو العلمانية أو اليهودية أو النصرانية أو غيرها من الأيدلوجيات التي تتربص بالإسلام، وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يُسَبُّ فيه الله – جل شأنه – وكتبه

---

(١) حد الردة : أحمد صبحي ، ص/٤٣.

(٢) حد الردة : أحمد صبحي ، ص/٤٧.

(٣) المرجع السابق ، ص/٨٨.

ورسله ، والناس سكوتٌ على هذا الكفر البواح ، لا يستطيعون أن يؤدبوا مرتداً كافراً ، أو يزجروا زنديقاً فاجراً ، وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يتوارى فيه اسم محمد – صلى الله عليه وسلم – باعتباره المعصوم والأسوة المطاع ، لتبرز أسماء ماركس ولينين وفرويد وغيرهم من أعداء الدين ، وليس بمجتمع مسلم ذلك الذي يجعل العقيدة على هامش حياته إنْ بقي لها مكان، وليَحْذَر المسلمون من هؤلاء المضللين الذين يهوّنون أمر الكفر عليهم ليقبلوه ، حماية للدين من العبث والفساد، و كل هذا لا يتنافى مع حرية العقيدة !!

المبحث السابع

تمنيِّ الكافرين عدم دخول المؤمنين الجنة والخلود في النار

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة البقرة، الآيتان /١١١،١١٢]

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة، الآيتان/٨٠،٨١].

وها نحن مع أمنية أخرى من أماني الكافرين للمؤمنين، يحاولون فيها احتكار الجنة عن المؤمنين ومنعهم منها، ففي هذه الآيات يبيِّن الله تبارك وتعالى اغترار اليهود والنصارى، حيث ادعت كل طائفة منهما أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها.

وقد يُتوهم أن الطائفتين قد حكمت كل منهما للأخرى بالجنة وليس كذلك، قال أبو حيان: (والضمير في (وَقَالُوا) عائد إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولفَّهم في القول :(لَن يدخل الجَنَّةْ) لأن القول صدر من الجميع، باعتبار أن كل فريق منهم قال ذلك...ولذلك جاء في العطف(بأو) التي هي للتفصيل والتنويع، وأوضحَ ذلكَ العلم بمعاداة الفريقين، وتضليل بعضهم بعضاً،

فامتنع أن يحكم كل فريق على الآخر بدخول الجنة)[١].

ثم قال تعالى: (تلك أمانيّهم)، والأماني جمع أمنيَّة بالتشديد، والتمنيّ: هو تشهِّي حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون، وقد يراد بالتمني: الكذب والاختلاق.[٢]

(قال أبو العالية: أماني تمنوْها على الله بغير حق، وكذا قال قتادة والربيع ابن أنس)[٣].

وظاهر الآية يدل على أن كل فريق منهم يتمنى أن يقتصر دخول الجنة عليه، ولا يكون لغيره فيها نصيبٌ، وفيما يتمناه كلٌ من الفريقين يدخل المسلمون دخولاً أوليًّا، فاليهود الذين يتمنون أن لا يدخل الجنة غيرهم، بالطبع يتمنون أن لا يدخلها المسلمون ولا النصارى، والنصارى الذين يتمنون أن لا يدخل الجنة غيرهم، كذلك يتمنون أن لا يدخلها المسلمون ولا اليهود، وبرغم ما حكاه القرآن عمّا بين اليهود والنصارى من البغضاء إلا أن بُغضهم جميعاً للمسلمين أشد، فقد تشابهت قلوبهم في كثير من الأشياء، ومن أهمها بُغضهم للمسلمين، وعندما يوجّهون بُغضهم للمسلمين يتناسون ما بينهم من بغضاء، وقد شهد العالم في السنوات الأخيرة الخبر المدوِّي عن تصالح اليهود والنصارى على أكبر سببٍ من أسباب العداوة بينهم، وهو دم المسيح– حسب

(١) البحر المحيط في التفسير، ٥٦١/١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: للإمام مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، طبعة المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥، ٣٠٤/٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ٢١/٢.

عقيدة الصلب عند النصارى– الذي ظل النصارى يطالبون به اليهود زمناً طويلاً، بدعوى أن اليهود هم الذين فعلوا ذلك الأمر وخططوا له!!وأعلن النصارى براءة اليهود من دم المسيح إلى الأبد.

ومَن يَدْرى لعله يأتي اليوم الذي يتقاسمون فيه الجنة فيما بينهم، المهم أن لا يدخلها المسلمون وأن يُخَلَّدوا في الجحيم.

وقد كان غيْظهم يدفعهم إلى أن يأتوا إلى النبي – ﷺ – يتبجحون بين يديه بأن النار لن تمسهم إلا أياماً قلائل، وأنه سيخلد هو وأمته فيها من بعدهم – عياذاً بالله.

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة– رضى الله عنه– قال: لما فُتِحَت خيبر أُهديت لرسول الله – ﷺ – شاة فيها سُمٌّ، فقال رسول الله – ﷺ – اجمعوا لي من كان هنا من اليهود فجُمعوا له، فقال لهم رسول الله – ﷺ – إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله – ﷺ: من أبوكم؟) قالوا: أبونا فلان ، قال رسول الله – ﷺ – كذبتم أبوكم فلان) قالوا: صدقت وبررت، قال لهم هل أنتم صادقيَّ عن شيء سألتكم عنه) قالوا نعم يا أبا القاسم، وإن كذبْنَاك عرفتَ كَذِبَنَا كما عرفتَهُ في أبِينَا، فقال رسول الله – ﷺ: من أهل النار؟) قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفُوننا فيها، فقال رسول الله – ﷺ – لا نخلفُكُم فيها أبداً... [(١)].

---

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند ٣٢٢/٩،٣٢٣، برقم (٩٧٨٨) من حديث أبي هريرة، وقال حمزة الزين: (إسناده صحيح)، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره، ٤٧٠/١ وعزاه إلى ابن مردويه والإمام أحمد والبخاري والنسائي من حديث الليث بن سعد بنحوه.

وتبجُحُهم هذا كان مَحْض غرورٍ منهم، بأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم بل بأنهم أبناء الله – تعالى عن ذلك – وأحباؤه.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣ – ٢٤]

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨]

تكذيب الله للكافرين بعد كشف هذه الأمنية من أمانيهم:

إنّه ما من أمنية من أماني الكافرين يكشفها الله– تعالى– للمؤمنين تحذيراً لهم إلا ويعقبها– في الغالب– تلقينٌ للمؤمنين أن يقوموا بمواجهة الكافرين بما عرفوه من مكنون صدورهم عن طريق الوحي.

وفى تلك الأمنية التي معنا – هنا قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١١ – ١١٢]

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠ – ٨٢]

وقال كذلك: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ ﴾ [المائدة: ١٨]

ودلالة هذا التلقين (قل ...قل...): أنه – ﷺ – مبلِّغ لوحى يوحى إليه من ربه، لا يستطيع أن يقصر في بلاغه كما هو.

وفي هذه المواجهة على هذا النحو فضحٌ لما تنطوي عليه قلوب الكافرين للمؤمنين من حقدٍ وكُرهٍ، حتى إنهم يودون حِرْمانهم من كل خير الدنيا والآخرة، ويُسَرُّون بنزول المصائب بهم في الدنيا، وبدخولهم النار في الآخرة، عياذاً بالله الرحيم.

ولم يكتف القرآن في تلقين النبي – ﷺ – ما يواجه به الكافرين في بتلك الأمنية، بل لقَّنه أن يدعوهم للمباهلة إن كانوا صادقين، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤] وقال أيضاً: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجمعة: ٦]

قال الطبري: (فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيه – ﷺ – به على اليهود الذين كانوا بين ظهرانيّ مُهَاجَرِه، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم، وذلك أن الله تعالى أمر نبيه – ﷺ – أن يدعوهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريقَيْن الآخرَيْن من النصارى إذا خالفوه في عيسى ابن مريم – عليه السلام– وجادلوه فيه، إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة، فقال لفريق اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت فإن ذلك

غير ضارّ بكم إن كنتم محقين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل أعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جناته، إن كان الأمر كما تزعمون من أن الدار الآخرة لكم خاصة من دوننا، وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم، فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكت فذهبت دنياها، وصارت إلى خِزْي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق النصارى – من المباهلة كذلك)[١].

وقرر القرآن كذلك سبب رفضهم المباهلة قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٥ – ٩٦]

وحِرْصُهم على الحياة وطول العمر إنما هو لعلمهم بمآلهم السيء وعاقبتهم الخاسرة عند الله، لأن الدينا سجنُ المؤمن وجنةُ الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم... وهذا لا يُزَحْزِحهم من العذاب ولا يُنجِّيهم، كما أن عُمْر إبليس لم ينفعه إذْ كان كافراً[٢].

وهكذا يواجه القرآن الكافرين بفَضْح كذبهم وزيفِهم، من خلال الدعوة

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن١/٥٤٤، وانظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ٤٩٦/١

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ١/٤٩٧.

إلى الإنصاف والعقل، ويرفض اللجاجة معهم في القول، حتى لا يُوقَع في مثل قبائحهم.

توجيه المسلمين نحو العمل لا الأمانيّ:

إنّ القرآن الذي علّم المسلمين كيفية مواجهة الكافرين بأمانيهم الحاقدة التي انطوت عليها قلوبهم، لِيُعَلِّمهم أيضاً أن المواجهة لا تكون بالجدال الذي يشبه فيه أصحابُ الحق أصحابَ الباطل، في انتحال البراهين على أحقية دعواهم.

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣ – ١٢٤].

روى الواحدي عن أبى صالح قال: (جلس أهل الكتاب: أهل التوراة وأهل الإنجيل، وأهل الأديان، كل صِنف يقول لصاحبه: نحن خيرٌ منكم، فنزلت هذه الآية، وقال مسروق وقتادة: احتجَّ المسلمون وأهلُ الكتاب، قال أهل الكتاب نحن أهدى منكم، نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون :نحن أهدى منكم وأولى بالله، نبينا خاتم الأنبياء، وكتابنا يقضي على الكتب التي قبله، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ثم أفلح حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان بقوله تعالى :(ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ..) وبقوله تعالى: (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ..)[١].

(١) أسباب النزول :للواحدي، ص/١٠٠،١٠١

(وفى الآية بيانٌ حاسمٌ يَفْصل بين هؤلاء المتجادلين في غير مجاملة أو محاباة أو هَوَادةٍ، والأصل في ذلك أن الإسلام لا يقيم وزناً للنَّعَرَات العصبية الفارغة، أو المُفاخرة بالآباء والأجداد، ولا المباهاة بالأشخاص والعناوين، وكل المظاهر الشكلية، لا يَعْبَأ الإسلام بشيء من ذلك، وإنما يعبأ بالعقيدة الصحيحة المستقيمة، والإيمان الساطع المستنير لِيَزِنَ الأمور والأشخاص جميعاً بميزان الإيمان الصحيح والعمل المخلص النافع المتواصل وكفى، والله سبحانه يحسم الخلاف هنا ليبين للمتخاصمين أن النجاة لا تكون بالتمني ولا بإطلاق الأماني من غير عمل مخلص مشروع، بأن الذي يعمل السوء لسوف يَلْقى جزاءه كيفما كانت مِلَّته التي يدين بها، فلا يُسْرِع بالمرء نحو الفوز والنجاة إلا عملُه الصالح، وليس في مجرد تمنِّيه من غير عمل إلا ما يُبْطئ به دون النجاة والخلاص....)[(١)].

وقال صاحب المنار: (ليس شرفُ الدين وفضلهُ ولا نجاةُ أهله بأن يقول القائل منهم: إنّ ديني أفضل أو أكمل وأحق وأثبت، وإنما عليه إذا كان موقناً به أن يعمل بما يهديه إليه فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمني والغرور، فلا أمرُ نجاتكم أيها المسلمون منوطاً بأمانيكم في دينكم، ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطاً بأمانيهم في دينهم، فإن الأديان ما شُرِعت للتفاخر والتباهي، ولا تحصل فائدتها بمجرد الانتماء إليها والتمدُّح لها بِلَوْكِ الألسنة والتشدق في الكلام، بل شُرِعت للعمل... وإنما سَرَى هذا الغرور إلى أهل الأديان من اتّكالهم على الشفاعات، وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بُعِث فيهم من

(١) التفسير الشامل للقرآن الكريم: د. أمير عبد العزيز ٢/٨١٨،٨١٩.

الأنبياء لِذَاتهم، فَهُم بكرامتهم يدخلون الجنة ويَنْجُون من العذاب لا بأعمالهم، فحذَّرنا الله أن نكون مثلهم، وكانت هذه الأماني قد دبَّت إلى المسلمين في عصر النبي – ﷺ – بدليل قوله تعالى في سورة الحديد قال تعالى: ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦] ، ولو تدبروا قوله لما كان لأمثال هذه الأماني عليهم من سلطان. فقد بّين لهم طُرق الغرور ومداخل الشيطان فيها.. إنَّ كثيراً من الناس يقولون تبعاً لمن قبلهم في أزمنة مَضت: إن الإسلام أفضل الأديان، أيّ دينٍ أصلحَ إصْلَاحه؟ أيُّ دينٍ أَرْشَد إِرْشَاده؟ أيُّ شَرْعٍ كَشَرْعِه في كماله؟ ولو سُئِل الواحد منهم: ماذا فعل الإسلام؟ وبماذا يتميز على غيره من الأديان؟ لا يجيد جواباً، وإذا عُرِضَتْ عليه شُبْهةٌ على الإسلام وسُئِلَ كَشْفها حَاصَ حَيْصَة الحُمُر وقال: أعوذ بالله، أعوذ بالله، والضالُ يبقى على ضلاله، والطاعن في الدين يتمادى في طعنه، والمغرور يَسْتَرْسِلُ في غروره، فالكلام كثيرٌ، ولا عملَ ولا علمَ يرفع شأن الإسلام والمسلمين)[1].

وبعد أن بيَّن السياق القرآني خطأ أصحاب الأماني جميعاً، مضى يُقرر قاعدة الجزاء على الأعمال، فقال: (من يعمل سوءاً يجز به)، عامةٌ في جميع الناس، وفى هذا التعبير ما تَرْجُف له القلوب من الوعيد الشديد، ولقد فَزِعَ المسلمون من هَوْلِها عند ما نزلتْ، فعن أبى هريرة– رضي الله عنه– قال :(لما نزلت (من يعمل سوءًا يجز به) شَقَّ ذلك على المسلمين، فشَكَوْا ذلك إلى النبي – ﷺ – فقال :قارِبُوا وسَدِّدُوا، وفى كل ما يُصيب المؤمن كفارةٌ حتى

(١) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ٤٣٢/٥-٤٣٤، وانظر : في ظلال القرآن ٧٦٢/٢.

الشوكة يُشَاكُهَا والنَّكْبَة يُنْكَبُها)[١].

وفي روايةٍ: (أن أبا بكر – رضي الله عنه – قال: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية: (من يعمل سوءاً يجز به) فكل سوءٍ عملنا جُزِينَا به؟ فقال رسول الله – ﷺ – غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تَمْرَض، ألست تَنصَب، ألستَ تَحْزَن، ألستَ تُصِيبُك اللأْواء) قال: بلى، قال:(فهو ما تُجْزَوْنَ به)[٢].

وكذلك قال في عمل الصالحات: (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ..).

وهي قاعدة أساسية ثابتة تقوم على التكافؤ العادل بين العطاء والجزاء، أو بين العمل والمثوبة المستحقة، يستوي في ذلك الإناث والذكران فلكل عاملٍ أجره ذكراً كان أم أنثى.. وأولئك العاملون المؤمنون يدخلون الجنة بفضل الله، ولا يُظلَمون من أُجُورِ أعمالهم شيئاً، وإن كان بقدر النَّقِير – وهي النُّكْتَة التي تكون في ظَهْر النَّوَاة – وفي هاتين الآيتين من العِبْرة والموعظة ما يَدُكُّ صُروح الأمانيّ ومعاقل الغرور، التي يأوي إليها ويتحصن فيها الكُسَالى والجُهَّال والفُسَّاق... وفيها ما يَرُدُّ زَعْمَ اليهود والنصارى استحقاق كلٍ منهما الجنة برغم كُفْرِهم بالنّبي

---

(١) صحيح: رواه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة: باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ص /١١٩ ورواه الترمذي في سننه: كتاب التفسير، باب ومن سورة النساء، ص/٨٦٥ برقم (٣٠٤٩) وقال: (حسن غريب).

(٢) صحيح: رواه أحمد في المسند، ١٩٤/١، برقم (٦٨،٦٩،٧٠،٧١) من طريق أبي بكر بن زهير، وقال الشيخ شاكر: (أسانيدها ضعاف لانقطاعها) ، ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٧٤/٣ وصححه ووافقه الذهبي.

والكتاب وعَدَائِهم للمؤمنين، وتحذير للمسلمين أن يسلكوا مَسْلَكَهم المُنْحرِف في الاغترار بالأماني(1).

ثم لفت الله تعالى أنظار من تخاصموا حول مَن الأفضل إلى علامةٍ بارزةٍ، ومنارةٍ واضحةٍ من منارات الدين الحق، وهي البُعْد عن الجدل وإسلام الوجه لله تعالى فقال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: لا أحد أحسن ديناً ممن جعل قلبه سالماً لله خالصاً، لا يَتَوَجَّه إلى غيره في دعاءٍ ولا رجاءٍ، ولا يجعل بينه وبينه حجاباً من الوُسَطاء والحُجَّاب، وسارَ على ملة إبراهيم في إخلاص التوحيد وإحسان العمل والبراءة من الكفر والكافرين، فيتذكر الذين يَدّعون اتِّبَاعه من اليهود والنصارى وغيرهم ما كان عليه من الكمال وما هم عليه من النقص، ولذلك ذَكَر أهلُ الأثرِ أنَّ هذه الآية– أيضاً نزلت في سياق الرد على المُتَفَاخرين بدينهم، المتبجح كل منهم على ملة إبراهيم، والمعنى أن إبراهيم قد اتخذه الله خليلاً، منَّ عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاءِ الروح وكمالِ المعرفة بالوحي والإخلاص في التوحيد، فأين أنتم من ذلك(2).

(١) انظر: التفسير الشامل للقرآن لكريم ٢/٨٢٠، وتفسير المنار، ٥/٤٣٧ .

(٢) انظر: تفسير المنار، ٥/٤٣٩،٤٤٠ وفتح البيان في مقاصد القرآن ٢/٣٧٥.

الخَــــاتــمــة

والآن، وقد بلغ البحث منتهاه، وأينعتْ ثمارهُ وآتى أكله، تأتى هذه الوقفة لجنْي قِطافه، وجمْعِ نتائجه، في بيان موجزٍ وسريعٍ، فنُجْمِل نتائج هذا البحث فيما يلي:

١- بيانُ أن الكافرين يتمنَّوْن انقطاعَ كل خيرٍ عن المؤمنين، حتى ولو كان يسيراً، سواء كان هذا الخير دينياً أو دنيوياً.

٢- بيانُ فرحِ الكافرين بمَضَرَّةِ المؤمنين، واستيائهم بنزول الحسنة والخير عليهم، وذلك لفرْط عداوتهم للمؤمنين.

٣- بيانُ أن أعظمَ خيرٍ يتمنَّى الكافرون انقطاعه وزواله عن المؤمنين هو هذا الدِّين، الذي هو سِرُّ قُوَّتِهم وتَمَاسُكِهم ووحْدتهم.

٤- بيانُ أن الكافرين يتمنَّوْن العَنَتَ والمشقَّة والهلاك والفساد للمؤمنين، وأنهم لا يدَّخِرون وُسْعاً في خَبَالِ المؤمنين وإفسادهم، فيَسْعون في إفساد المرأة، وإفساد الحكام لظُلْم رعيتهم، وإفساد المحكومين بتأجيج نار الثورة والخروج على الحكام... وكل هذا عَنَتٌ ومشقةٌ للمؤمنين.

٥- بيانُ أن ما تُخْفِيه صدُور الكافرين من بغضاءَ للمؤمنين أكبر مما تُبْدِيه ألسنتهم، وأن غيْظهم من المؤمنين يبلغُ عضَّ الأناملِ من شِدَّته.

٦- بيانُ أنه يَحْرُم على المؤمنين مُوَالاة الكافرين، واتخاذهم بطانةً يُقرِّبونهم إليهم من دون المؤمنين.

٧- بيانُ أن المؤمنين أحقُّ بأن يَبْغضوا الكافرين من بُغْضِ الكافرين لهم، وذلك لكفرهم بالله ورسوله وكتبه.

٨- بيانُ أن الكافرين لا يَقِفُون عند حدود تمنِّي الشر فقط للمؤمنين، بل يَسْعَوْن إلى تحقيق تلك الأمانيّ كلما سَنَحَت لهم الفرصة، فيسعون لتفريق المسلمين، ويشُنُّون الغارات العسكرية عليهم لتدمير بلادهم.

٩- بيانُ أن الكافرين يتمنَّوْن إِضْلال المؤمنين عن طريق الحق بعد أن قد هُدوا إليه، وهذا صدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به، ويسلكون في تحقيق تلك الأمنيّة طُرُقاً شتى، كتلبيسِ الحق بالباطل وخلْطه، وكتمانِ الحق أو بعض الحق، وأنهم يُطوِّرون أساليبهم في الإضلال بحسب الزمان والمكان.

١٠- بيانُ أن اليهود– وهم أشرُّ الكافرين– كانوا من وراء تأسيس كل الحركات الباطنية الهدامة، التي كانت تهدِف إلى تقْويض الإسلام من داخله، عن طريق التشكيك والإضلال، وباكورة تلك الجهود الخبيثة جهود عبد الله بن سبأ اليهودي، مروراً بالفكر الفلسفي المُغالي الذي طعن الإسلام في ثوابته، ووصولاً إلى الجمعيات ذات النشاط السِّرِّي المعاصرة كالماسونية والروتاري... وغيرها.

١١- بيانُ أن أخطر وسائل الكافرين في الإضلال والتشكيك هي :استغلالهم للنقاط المشتركة بين عموم الناس، للنفوذ من خلالها والتسلل لاختراق المجتمعات الإسلامية، مثل حقوق المرأة والديمقراطية، والعدالة والإخاء والمساواة...

١٢- بيانُ أن الكافرين يَجْهرون بإصرارهم على إضلال المؤمنين، وقد نقلنا فيما سبق عدداً من أقوال رؤوسهم في هذا الشأن.

١٣- بيانُ أن الكافرين يتمنَّوْن أن يَلِين لهم المؤمنون ويعترفون بهم، فيَلِينُون

لهم ويعترفون بهم هم أيضاً، ولا يَخفى على عاقل ما يترتب على اعتراف الحق للباطل ومهادنته له، لأن الباطل لا يَخسر شيئاً باعترافه للحق، ولكن الحق هو الذي يخسر باعترافه للباطل.

١٤- بيانُ أن غاية الكافرين من مداهنة المؤمنين هي أن يفتنوهم عن حقيقة دعوتهم، ويجعلوها دعوةً شكليةً لو قَدِرُوا على ذلك، بحيث ترضى هذه الدعوة عن الكفر والكافرين، وتكفُّ عن الدخول معهم فيما يُسمَّى بحرب العقيدة.

١٥- بيانُ خطورة مُلَايَنة الكافرين، وأنهم لِتَفَنُّنِهم في هذا الأمر أَوْشَكَ النبي– صلى الله عليه وسلم–أن يقع في شيءٍ من فتنتهم، لو لا أن ثبته الله فكيف بمن دونه؟

١٦- بيانُ شِدَّة وعيد الله لمن لَايَنَ الكافرين، بالعذاب في الدنيا وفى الآخرة، وقد وُجِّه هذا الوعيد الإلهيُّ للنبي – صلى الله عليه وسلم – مع أنه لم يُداهن الكافرين، لبيان أن من دونه إن دَاهنَ الكافرين استحق الوعيد من باب أوْلَى.

١٧- بيانُ أن المسلم يجب أن يكون صلباً في دين الله، لا يقبل المساومات، ولا يقدِّم التنازلات التي تضر بإيمانه وتُضِّيع عقيدته، حتى لا يُعرِّض نفسه لوعيد الله الشديد.

١٨- بيانُ خطورة الدعوة إلى وحدة الأديان أو حوار الأديان، لأنها دعوة مشبوهة، ووسيلة جديدة لمُلَاينة المسلمين، ليعترفوا بأديان الكفر، أو قبول ما يسمونه الآخر.

١٩- بيانُ أن الكافرين يتمنَّوْن غَفْلة المسلمين عن أسلحتهم وأمتعتهم وعن كل أسباب القوة، ليتمكنوا من القضاء عليهم في مَيْلة واحدة.

٢٠- بيانُ أن التَّسَلُّح وإعداد القوة بكل صورها وأشكالها أمرٌ ضروريٌ أَهْمَلَه المسلمون من حياتهم، برغم حثِّ دينهم لهم على ذلك وإيجابه عليهم، ويتحمل المسؤولية كلُّ من يَحُولُ دون إعداد هذه القوة، وأن القوة ضرورية لحماية الإسلام والسلام أيضاً.

٢١- بيانُ أن الكافرين يتمنَّوْن أن يَكْفر المؤمنون، فيكونون في الكفر سواءً، ولا يبقى للمؤمنين فضلٌ عليهم ليعيِّرُوهم بالكفر.

٢٢- بيانُ أن الحسد والحقد هو الذي يدفع الكافرين ويَحْمِلهم على تمنِّيهم الكفر للمؤمنين، وأنهم لم يُؤمروا بذلك في شريعةٍ ولا كتابٍ.

٢٣- بيانُ أن المؤمنين يتمنَّوْن إيمان الكافرين أكثر من تمنيّ الكافرين كُفْرَ المؤمنين، لأن المؤمنين لما ذاقوا حلاوة الإيمان يودون أن لو آمن الناس جميعاً.

٢٤- بيانُ أن الكافرين يقاتِلُون المؤمنين ليَرُدُّوهم بعد إيمانهم كافرين، وأن هذا العداء مستمرٌّ لا ينقطع، ومهما رفعوا في قتالهم للمسلمين من رايات غير راية العقيدة ليُضِلوا المسلمين، فينبغي أن لا يُخدع المؤمنون عن أن الذي يحرك الكافرين لقتال المسلمين هو العقيدة قبل كل شيء .

٢٥- بيانُ أن الكافرين لا يرْضَوْن عن المؤمنين حتى يتركوا ما هم عليه من الدين، ويدخلوا في دين الكافرين.

٢٦- بيانُ خطورة الرِّدّة عن الإسلام، وأن من حصل منه ذلك وأصرّ عليه

استوجب عقوبة في الدنيا وهى القتل، وعقوبة في الآخرة وهى حبوط العمل والخلود في العذاب المهين.

٢٧- بيانُ أن الكافرين يتمنَّوْن عدمَ دخولِ المؤمنين الجنة في الآخرة، ويودُّون لهم الخلود في النار.

٢٨- بيانُ أن الكافرين يتحِدُون ويتصالحون في أشد أسباب العداوة بينهم عندما يواجهون المسلمين، ورأينا كيف تصالح اليهود والنصارى إلى حد تنازل النصارى عن دم المسيح وتبرئة اليهود منه مع أنه أساس الأسس في عقيدتهم، فكيف لا يتصالح المؤمنون وكل ما بأيديهم من تكاليفَ وتشريعاتٍ تفرض عليهم التوحُّد والتصالُح فرضاً لا ندباً.

٢٩- بيانُ أن الله تعالى يكشف أماني الكافرين– هكذا– للمؤمنين تثبيتاً لهم، ليكونوا على حذر من مكرهم وخداعهم، وقد قال لهم:(يا أيها الذين ءامنوا خذوا حذركم ..).

٣٠- بيانُ أن كل موضعٍ في القرآن جاء في كَشْفِ أمنيَّة من أماني الكافرين للمؤمنين، أعقبه بيان أن تلك الأمانيّ لا تضر المؤمنين، ما داموا مستمسكين بحبل الله، لا يَهِنُون، ولا يَذِلُّون، ولا يُعْطُون الدَّنِيَّة في دينهم، ولا يَقْبَلُون المُسَاومة على عقيدتهم.

٣١- بيانُ أن الله – تعالى – قد وجَّه المؤمنين نحو العمل، وحثَّهم على تَرْك الأمانيّ الكاذبة التي تُقعد بهم عن العمل.

توصيات الدراسة:

كما توصى الدراسة بالعمل على نَشْر فقه التعامل مع غير المسلمين في ضَوْءِ الضوابط الشرعية، والتي تدعو إلى الإحسان إليهم، وتنهى عن ظلمهم، ولكن في نفس الوقت تُحذِّر مما يحيكونه للمسلمين، مع التركيز على أن الإحسان والبرَّ بهم لا يعنى موالاتهم وذوبان الهُوية الإسلامية.

هذا: وأسأل الله تعالى أن يهدينا سواء السبيل، وأن يرد كيد كلِّ من كَاد لهذا الدين وأهله في نَحْره، وأن يجعل دائرة السَّوْء عليه، وأن يرزقنا إيمانًا لا يَنفَد، ويقينًا لا يَرْتَد، وأن يجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله، وصلى الله على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

١- إحياء علوم الدين: لأبى حامد محمد بن محمد الغزالي، طبعة دار الفكر، بيروت، ودار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٢- أسباب النزول: على بن أحمد الواحدي، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٣- الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان: د. بكر بن عبد الله أبو زيد، طبعة وزارة الأوقاف السعودية ١٤١٩هـ.

٤- الإخاء الديني ومجمع الأديان سياسة غير شرعية: د. محمد البهي. بدون بيانات

٥- الاختراق اليهودي للمجتمعات الإسلامية: د. فرج الله عبد الباري، طبعة دار الآفاق، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

٦- الإسلام والعلاقات الدولية : د. محمد الصادق العفيفي، طبعة دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٧- الأصولية الإنجيلية (أو الصهيونية المسيحية): محمد السمأّك، طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي.

٨- الأم: محمد بن إدريس الشافعي، طبعة دار الفكر، بيوت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٩- الإيمان أولاً فكيف نبدأ به: د. مجدي الهلالي، طبعة دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٠- الإيمان حقيقته وأركانه ونواقضه: د. محمد نعيم ياسين، طبعة دار ابن

الجوزي، القاهرة، بدون تاريخ.

١١- البحر المحيط في التفسير: محمد بن يوسف (الشهير بأبي حيان)، طبعة دار الفكر، بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

١٢- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: لأبى العباس أحمد بن محمد ابن عجيبة، تحقيق: أحمد بن عبد الله القرشي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨م.

١٣- البداية والنهاية: لأبى الفداء عماد الدين ابن كثير –طبعة دار التقوى– القاهرة ٢٠٠٤م.

١٤- التحديات التي تواجه العالم الإسلامي :د. توحيد الزهيري، طبعة دار الجميل، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٥- التفسير المنير في العقيدة والشريعة: د. وهبة الزحيلي، طبعة دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١٦- التفسير الوسيط: د. محمد سيد طنطاوي، طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

١٧- التوسط والاعتقاد في بيان أن الكفر يكون بالقول والفعل والاعتقاد: علوي بن عبد القادر السقاف، طبعة دار ابن القيم، السعودية الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٨- الجامع الصحيح: محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

١٩- الجامع لأحكام القرآن: لأبى عبد الله محمد بن أحمد القرطبي،

تحقيق: صدقي العطار وعرفات العشا، طبعة دار الفكر، بيروت ١٤٢٢هـ.
٢٠- الدين والدولة في توجيه القرآن الكريم: د. محمد البهي، طبعة مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.
٢١- الردة في الإسلام: حسن غريب، طبعة دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
٢٢- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، طبعة مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
٢٣- الصارم المسلول في الرد على شاتم الرسول: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، طبعة مؤسسة الرسالة، بيوت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
٢٤- العجب العجاب في بيان الأسباب: أحمد بن على بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، طبعة دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٢٥- العقوبة: محمد أبو زهرة، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م.
٢٦- العقيدة المسيحية في لقاء مع الإسلام: أندرواس بشتة، وعادل خوري، طبعة المكتبة البولسية، لبنان ٢٠٠٢م.
٢٧- الفتنة ووقعة الجمل (برواية سيف بن عمر الضبي): جمع وترتيب: أحمد راتب عرموش، طبعة دار النفائس، بيوت ، الطبعة الثالثة.
٢٨- الفرق بين الفِرق: عبد القاهر بن طاهر البغدادي، طبعة دار الجيل، بيروت.

٢٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأبى محمد على بن أحمد بن حزم طبعة شركة عكاظ، جدة الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

٣٠- الفقه الإسلامي وأدلته: د. وهبة الزحيلي، طبعة دار الفكر بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

٣١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: جار الله محمود بن عمر الزمخشري، طبعة دار الفكر، بيروت.

٣٢- المجموع شرح المهذب: لأبى زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق محمد نجيب المطيعي، طبعة مكتبة الإرشاد– جدة ١٩٨٠م.

٣٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: للقاضي عبد الحق غالب بن عطية الأندلسي تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، طبعة دار الكتب العلمية– بيروت – الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ.

٣٤- المسند: أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وحمزة الزين، طبعة دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى.

٣٥- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٣٦- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: لأبى العباس أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق هاني الحاج، طبعة المكتبة التوفيقية، القاهرة، الطبعة الأولى.

٣٧- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: لأبى زكريا يحيى بن شرف النووي، طبعة دار الفكر، بيروت ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٣٨- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، د. مانع ابن حماد الجهني، طبعة الندوة العالمية للشباب، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

٣٩- النهاية في غريب الحديث والأثر مجد الدين المبارك ابن الأثير الجزري، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، طبعة المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٤٠- اليهود يزيفون تاريخ العالم، محمد عبد الواحد حجازي، طبعة دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠٥م.

٤١- اليهودية: د. أحمد شلبي، طبعة مكتبة النهضة، القاهرة.

٤٢- تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، طبعة دار سحنون، تونس.

٤٣- التفسير الشامل للقرآن الكريم: د. أمير عبد العزيز، طبعة دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٤٤- تفسير القرآن الحكيم (الشهير بتفسير المنار): محمد رشيد رضا، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

٤٥- تفسير القرآن العظيم: لأبى الفداء عماد الدين ابن كثير الدمشقي، تحقيق مصطفى السيد وآخرين، طبعة مكتبة أولاد الشّيخ للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٤٦- تهذيب تسهيل العقيدة الإسلامية: د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، مطبعة سفير، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٤٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، طبعة دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٤٨- جامع البيان عن تأويل آي القرآن محمد بن جرير الطبري، تحقيق: صدقي العطار، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٤٩- جامع العلوم والحكم: للحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: وليد سلامة، طبعة مكتبة الصفا، القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٥٠- جريمة الردة وعقوبة المرتد: د. يوسف القرضاوي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٥١- حد الردة دراسة أصولية تاريخية: أحمد صبحي منصور، طبعة دار طيبة للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٣م.

٥٢- تحفة الحبيب على شرح الخطيب: سليمان بن محمد البجيرمي، تحقيق: د. نصر فريد واصل، طبعة المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٥٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود شكري الآلوسى، تحقيق: محمد حسين، طبعة دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

٥٤- رياض الجنة بشرح أصول السنة: أبى الأشبال أحمد بن سالم المصري، طبعة دار الكيان، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

٥٥- زاد المسير في علم التفسير: لأبى الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٥٦- سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: صدقي العطار، طبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

٥٧- شرح العقيدة الطحاوية: علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، تحقيق : ابن باز والألباني وابن عثيمين، طبعة مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٥٨- صحيح الجامع الصغير وزياداته: محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٦م.

٥٩- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، طبعة دار ابن حزم، بيوت الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٦٠- عالم واحد للجميع (أعمال المؤتمر المسيحي الإسلامي الدولي الثاني ١٩٩٧م): جمع: أندرواس بشته وآخرين، ترجمة: عادل خورى، طبعة المكتبة البولسية، لبنان ٢٠٠٠م.

٦١- عصر الإلحاد، خلفيته التاريخية وبداية نهايته: محمد تقي الأميني، ترجمة د. مقتدي حسن ياسين، طبعة دار الصحوة، القاهرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤ م.

٦٢- غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام: د. فتحي الزغبي، مطبعة الغباشي، القاهرة.

٦٣- فتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان، طبعة دار الفكر العربي، القاهرة.

٦٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير: محمد بن علي الشوكاني، طبعة مؤسسة الريان، بيروت ، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م.

٦٥- في رحاب التفسير: عبد الحميد كشك، طبعة المكتب المصري الحديث، القاهرة.

٦٦- في ظلال القرآن: سيد قطب، طبعة دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة والثلاثون، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٦٧- قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، طبعة دار السلام، القاهرة، الطبعة التاسعة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٦٨- كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٦٩- لسان العرب: محمد بن مكرم علي بن منظور، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

٧٠- محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: أحمد بن علي، وحمدي صبحي، طبعة دار الحديث، القاهرة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٧١- مفاتيح الغيب (أو التفسير الكبير): فخر الدين محمد بن عمر الرازي، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤٢٣هـ.

٧٢- منار السبيل شرح الدليل: إبراهيم بن محمد بن سالم بن ضويان، تحقيق: د. سعيد مصطفى ، طبعة دار ابن خلدون ،٢٠٠٥م.

فهرس الموضوعات